

مُخاطراتُ أمِّ مازِنِ

المحتويات

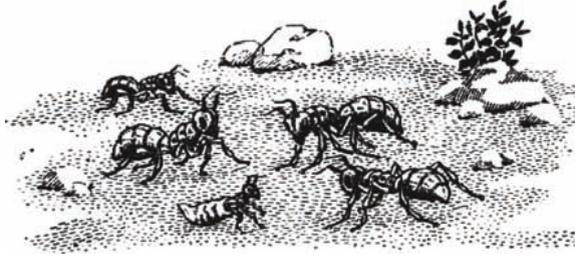
٧

٤١

مُخَاطَرَاتُ أُمَّ مَازِنٍ
إِلْمَامَةٌ بِالنَّمْلِ

مُخاطراتُ أمِّ مازينِ

(١) فاتِحَةُ القِصَّةِ



ما كانَ أَسْعَدُهُ يَوْمًا، وَأَبْهَجُهُ احْتِفَالًا، حِينَ حَزَجَتْ «أُمُّ مازينِ» مِنْ لَفائِفِها، لِتَسْتَقْبِلَ الحِياةَ بِقَلْبِ طَرُوبٍ، يَفِيضُ بِشِرا وَأَمَلًا، وَقَدِ التَّفَّ حَوْلَها أَهْلُها وَعَشيرَتُها الأَدْنونَ، وَنَهافَتُوا إِلى رُؤيَتِها مُسرِعِينَ مِنْ أَقاصِي القَرِيَةِ، لِيشْتَرِكُوا فِي ذلِكَ المَهراجانِ البَهِيجِ.

وَكانتُ «أُمُّ مازينِ» أَصغَرَ المُولوداتِ الَّتِي نَجَبتُ وَنَرَعَرَعَتُ فِي تِلْكَ القَرِيَةِ، الحافِلَةَ بِأَهْلِها مِنَ النَّمْلِ الأَسودِ الرَّماديِّ.

وَقدِ فَرِحَتُ ساكِناتُ القَرِيَةِ بِ«أُمِّ مازينِ» فَرَحًا عَظِيمًا. وَكانتُ قَرِيَةَ النَّمْلِ مُعجَبَةً بِوَسامَةِ هَذِهِ المُولودَةِ، فَرِحَةً بِما يَبْدُو عَلى سِماها مِنْ أماراتِ النِّجابَةِ، مُؤمِّلَةً فِيها أَحسَنَ تَأمِيلِ.

(٢) بِنْتُ الشَّيْصَبَانِ

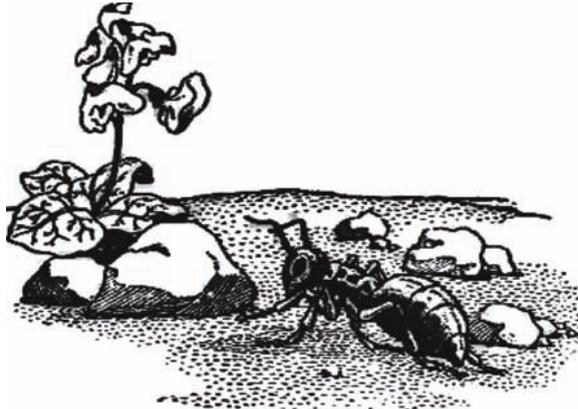
وَأَقْتَرَبَتْ مِنْهَا «بِنْتُ الشَّيْصَبَانِ»، وَهِيَ أَكْبَرُ نِمَالِ الْقَرْيَةِ سِنًّا، وَأَكْثَرُهُنَّ تَجْرِبَةً، وَأَقْبَلَتْ عَلَى الطُّفْلِ النَّاشِئَةَ تُدَاعِبُهَا، قَائِلَةً: «يَا لَهَا مِنْ جَمِيلَةٍ فَاثِنَةٍ! لَقَدْ فَاقَتْ — عَلَى صِغَرِهَا — بَنَاتِ جِنْسِهَا: حُسْنًا وَمَلَاحَةً. فَلِنُطَلِّقَ عَلَيْهَا مُنْذُ الْيَوْمِ: «أُمُّ مَازِنِ»، وَلِنُنَادِيَهَا بِذَلِكَ، لِنُكْرِمَهَا بِهَذِهِ التَّكْنِيَةِ، وَنُمَيِّزَهَا عَنْ رَفِيقَاتِهَا مِنْ بَنَاتِ الْقَرْيَةِ.»

وَكَانَتْ «أُمُّ مَازِنِ» — كَأَخَوَاتِهَا جَمِيعًا مِنَ النَّمْلِ — مِثَالًا لِلنَّشَاطِ وَالْجِدِّ وَالْمُنَابَرَةِ، تَتَلَأَلُ فِي رَأْسِهَا الْجَمِيلِ عُيُونٌ حَمْسٌ بَرَّاقَةٌ، تَبْتَنَانِ مِنْهَا كَبِيرَتَانِ عَلَى جَانِبَيْ رَأْسِهَا، وَثَلَاثُ صَغِيرَةٍ فِي وَسَطِ جَبْهَتِهَا.

وَلَنْ يَفُوتَنِي أَنْ أُحَدِّثَكُمُ عَنْ قَرْنَيْهَا الصَّغِيرَيْنِ النَّانِئَيْنِ فِي رَأْسِهَا. وَلَعَلَّكُمْ تَعْرِفُونَ أَنَّ الْقُرُونَ لِلنَّمْلِ، كَالْيَدَيْنِ لِلإِنْسَانِ؛ فَإِنَّ كُلًّا مِنْهَا يَصْلُحُ لِلْمَسِّ الْأَشْيَاءِ.

(٣) فِي الطَّرِيقِ

وَحَرَجَتْ «أُمُّ مَازِنِ» مِنْ قَرْنَيْهَا، لِلْمَرَّةِ الْأُولَى فِي حَيَاتِهَا. ثُمَّ سَارَتْ فِي طَرِيقِهَا — عَائِدَةً إِلَى بَيْتِهَا — بَعْدَ أَنْ أَتَمَّتْ نَزْهَتَهَا. وَمَا زَالَتْ تَمْشِي مُتَبَدِّدَةً، بِطَبِئَةِ السَّيْرِ فِي طَرِيقِ مَمْلُوءَةٍ بِالْحَصَى، وَهِيَ تَلْقَى فِي سَبِيلِهَا، مِنْ أَلْوَانِ التَّعَبِ وَالْعَنَاءِ، مَا لَا قِبَلَ لِغَيْرِهَا بِاحْتِمَالِهِ.



مُخَاطَرَاتُ أُمِّ مَازِنَ

وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ صِغَارَ الْحَصَى الَّتِي كَانَتْ تَعْتَرِضُ «أُمَّ مَازِنَ» فِي طَرِيقِهَا هِيَ — عَلَى الْحَقِيقَةِ — جِبَالٌ شَاهِقَةٌ بِالْقِيَاسِ عَلَيْهَا!

انظُرُوا إِلَيْهَا، وَهِيَ تَمَثِّي جَادَةً مُسْرِعَةً فِي سَيْرِهَا، عَلَى قَدْرِ مَا تَسْتَطِيعُ أَقْدَامُهَا النَّحِيفَةَ الْمُتْنَاهِيَةَ فِي الضَّالَّةِ. وَتَأَمَّلُوا: كَيْفَ تَلْمَسُ الْأَرْضَ بِأَحَدِ قَرْنَيْهَا، قَبْلَ أَنْ تَخْطُو خُطْوَةً وَاجِدَةً. فَهِيَ تَتَحَسَّسُ الْأَشْيَاءَ بِقَرْنِهَا الْأَيْمَنِ مَرَّةً، وَبِقَرْنِهَا الْأَيْسَرِ مَرَّةً أُخْرَى، مُسْتَهِينَةً بِكُلِّ مَا تَلْقَاهُ فِي طَرِيقِهَا مِنَ الْعُقَبَاتِ وَالْمَصَاعِبِ، مُتَقَدِّمَةً — فِي صَبْرٍ وَمُتَابِرَةً لَا مَثِيلَ لَهُمَا — حَتَّى تَبْلُغَ غَايَتَهَا، أَوْ تَمُوتَ دُونَهَا!

وَكَانَتْ «أُمَّ مَازِنَ» تُحَدِّثُ نَفْسَهَا، قَائِلَةً: «يَا لَهَا مِنْ طَرِيقٍ مُتَعَبَةٍ شَاقَّةٍ! فَلَيْسَ يَخْلُو مَكَانٌ فِيهَا مِنْ حُفْرَةٍ، أَوْ هَاوِيَةٍ، أَوْ أُحْدُودٍ. وَلَيْسَ أَجْدَرُ مِنِّي بِالْأَنَانَةِ وَالْحَذَرِ، حَتَّى أَعُودَ إِلَى قَرِيَّتِي سَالِمَةً!»

وَلَقَدْ صَدَقَتْ «أُمَّ مَازِنَ» فِيمَا حَدَّثَتْ نَفْسَهَا بِهِ، فَقَدْ كَانَتْ الطَّرِيقُ الْوَعْرَةُ الْمَخُوفَةُ، تَتَطَلَّبُ مَهَارَةَ النَّمْلَةِ وَحَزْمَهَا، لِتَخْرُجَ مِنْهَا نَاجِيَةً مِنْ كُلِّ سُوءٍ، فَلَا تُكْسِرُ إِحْدَى أَرْجُلَيْهَا، وَلَا تُصَابُ بِأَيِّ عَطَبٍ.

وَلَقَدْ أَصَابَ وَصَدَقَ مَنْ سَمَّاهَا: نَمْلَةً. فَهِيَ — فِي الْحَقِّ — كَثِيرَةُ التَّنْمِلِ، دَائِبَةٌ التَّحْرُكِ. فَلَا عَجَبَ إِذَا أُطْلِقُوا عَلَيْهَا هَذَا الْأِسْمَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الْحَرَكَةِ وَالنَّشَاطِ! هَا هُوَ نَا جِبَلٌ تَتَسَلَّقُهُ «أُمَّ مَازِنَ»، جَادَةً مُتَابِرَةً — عَلَى مَا تُحَسُّ بِهِ مِنْ تَعَبٍ نَهَكَ قَوَاهَا، وَأَضْنَى جِسْمَهَا — حَتَّى تُدْرِكَ غَايَتَهَا.

(٤) الرَّفِيقَتَانِ

وَإِنَّهَا لَتَسِيرُ جَادَةً، وَقَدْ بَلَغَ بِهَا الْإِعْيَاءُ كُلَّ مَبْلَغٍ، إِذْ لَمَحَتْ نَمْلَتَيْنِ — مِنْ بَنَاتِ جِنْسِهَا — خَرَجَتَا مِنَ الْقَرْيَةِ لِلْإِحْتِطَابِ، وَقَدْ حَمَلَتَا فَرْعًا صَغِيرًا مِنْ فُرُوعِ النَّبَاتِ، وَهُمَا عَائِدَتَانِ فِي طَرِيقِهِمَا إِلَى النَّبْتِ.

وَلَقَدْ جَهَدَهُمَا حَمْلُ هَذَا الْفَرْعِ الصَّغِيرِ، وَقَدْ اغْتَزَمَتَا أَنْ تُصْلِحَا بِهِ إِحْدَى غُرْفِ الْقَرْيَةِ الَّتِي انْهَارَتْ فِي أَثْنَاءِ اللَّيْلِ. وَكَانَ ذَلِكَ الْفَرْعُ — بِالْقِيَاسِ إِلَيْهِمَا — كَأَنَّهُ جِذْعُ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ!

مُخَاطَرَاتُ أُمِّ مَازِنٍ

وَكَانَتْ الْحَاطِبَتَانِ تَبْدُلَانِ أَقْصَى جُهِدَيْهِمَا لِتَجَرُّاهُ، حَتَّى ضَعُفَتْ قُوَاهُمَا، وَتَعَدَّرَ عَلَيْهِمَا أَنْ تَتَقَدَّمَا بِهِ خُطْوَةً وَاحِدَةً إِلَى الْأَمَامِ. وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ، فَقَدْ كَانَ — عَلَى صِغَرِهِ — ثَقِيلًا، وَكَانَتْ الْأَرْضُ — الَّتِي تَدْبَانِ عَلَيْهَا — صَخْرِيَّةً.

فَلَمَّا رَأَتْهُمَا «أُمُّ مَازِنٍ» عَرَفَتْهُمَا، وَأَدْرَكَتْ مَا تُعَانِيَانِ مِنْ جَهْدٍ، فَتَقَدَّمَتْ إِلَيْهِمَا، قَائِلَةً: «كَيْفَ أَنْتُمَا؟ هَلُمَّا نَتَّعَاوُنْ عَلَى جَرِّ هَذَا الْحِمْلِ الثَّقِيلِ!»

وَلَمْ تُضِعْ «أُمُّ مَازِنٍ» وَقْتَهَا عَبَثًا، بَلْ انْضَمَّتْ إِلَى الْحَاطِبَتَيْنِ، وَعَاوَنْتْ رَفِيقَتَيْهَا عَلَى جَرِّ الْفَرْعِ، حَتَّى بَلَغْنَ بِهِ ذِرْوَةَ الثَّلَّةِ الصَّغِيرَةِ الْعَالِيَةِ.

ثُمَّ قَالَتْ «أُمُّ مَازِنٍ» لِرَفِيقَتَيْهَا: «لَقَدْ أَدَيْتُ وَاجِبِي — يَا رَفِيقَتَيَّ — فَوَدَاعًا، وَإِلَى اللِّقَاءِ الْقَرِيبِ!»

فَشَكَرَتَا لَهَا مَا بَدَلَتْ — فِي مُسَاعَدَتَيْهِمَا — مِنْ جَهْدٍ وَعَنَاءٍ.

(٥) الْمَطَرُ

ثُمَّ سَارَتْ «أُمُّ مَازِنٍ» فِي طَرِيقِهَا، حَتَّى لَقِيتْ جَمَهْرَةً مِنَ النَّمْلِ، جَادَةً فِي السَّيْرِ. وَرَأَتْ إِحْدَاهَا تَحْمِلُ وَلَدَهَا الصَّغِيرَ، وَقَدْ احْتَضَنَتْهُ فِي ثَوْبِهَا الشَّفَافِ. وَرَأَتْ جَمَاعَةً أُخْرَى تَحْمِلُ أَعْوَادًا صَغِيرَةً — فِي مِثْلِ أَحْجَامِ الْإِبْرِ — مِنْ شَجَرِ الشُّوْحِ، وَبَقَايَا وَرَقِ الْأَشْجَارِ الْأُخْرَى. وَإِنَّهَا لَسَائِرَةٌ فِي طَرِيقِهَا — وَادِعَةٌ قَرِيرَةٌ النَّفْسِ — إِذْ سَمِعَتْ جَلْجَلَةً تَدْوِي فِي الْفَضَاءِ، فَفَقَزَتْ خَائِفَةً مَذْعُورَةً. وَلَمْ تَدْرِ مَصْدَرَ تِلْكَ الْجَلْجَلَةِ الرَّاعِدَةِ، لِأَنَّهَا لَمْ تَسْمَعْ صَوْتِ الرَّعْدِ، قَبْلَ الْيَوْمِ.

وَدُعِرَتْ رَفِيقَاتُهَا النَّمَالُ الَّتِي كَانَتْ تَسْعَى بَيْنَ الْحَشَائِشِ.. وَأَسْرَعَتْ إِلَى قَرِيبَتِهَا عَائِدَةً، حِينَ سَمِعَتْ قِصْفَ الرَّعُودِ الْمُدْوِيَّةِ.

أَمَّا صَاحِبَتُنَا «أُمُّ مَازِنٍ» فَقَدْ سَرَتْ الرَّعْدَةُ فِي جِسْمِهَا، مِنْ فَرَطِ الْخَوْفِ، وَأَسْرَعَتْ فِي جَرِّهَا صَوْبَ الْبَيْتِ. وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُدْ تُكْمِلُ عَشْرَ خُطَوَاتٍ، حَتَّى أَحَسَّتْ كَأَنَّ هِرَاوَةً ضَخْمَةً هَوَتْ عَلَى رَأْسِهَا بِضَرْبَةٍ قَاتِلَةٍ. فَصَرَخَتْ مِنْ فَرَطِ الْأَلَمِ وَالْخَوْفِ، وَهِيَ تَتَدَخَّرُ عَلَى الْأَرْضِ: «آه! لَقَدْ تَحَطَّمَتْ، يَا رَأْسِي الْمُسْكِينِ!»

مُخَاطَرَاتُ أُمِّ مَازِنَ

وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الصَّرْبَةَ الْقَاتِلَةَ الَّتِي كَادَتْ تُذْهِلُ «أُمَّ مَازِنَ» إِلَّا نُقْطَةً كَبِيرَةً مِنَ الْمَطْرِ.
ثُمَّ تَبِعَتْهَا نُقْطَةٌ أُخْرَى فَوْقَ ظَهْرِهَا. ثُمَّ ثَالِثَةٌ، ثُمَّ تَوَالَتْ قَطْرَاتُ الْمَطْرِ. فَاشْتَدَّ جَرَعُ «أُمَّ
مَازِنَ»، وَأَيَّقَنْتْ بِالْهَلَاكِ. وَصَاحَتْ مَعْوَتَةً تَطْلُبُ النَّجْدَةَ، وَقَدْ تَمَلَّكَهَا الدُّعْرُ: «أَعِينُونِي!
أَدْرِكُونِي! النَّجْدَةَ يَا رَفِيقَاتِي، فَإِنَّ أَعْدَائِي تَأْتِمِرُ بِي لِتَقْتُلَنِي!»
فَلَمْ يَسْمَعْ صِيَاحَهَا أَحَدٌ، وَذَهَبَ صَرَاحُهَا أُدْرَاجَ الرِّيَاحِ. فَاسْرَعَتْ — فِي جَرِيهَا يَمَنَّةٌ
وَيَسْرَةً — وَهِيَ لَا تَدْرِي: إِلَى أَيْنَ تَقْصِدُ، وَقَدْ غَمَرَ الْمَطْرُ كُلَّ مَكَانٍ، وَالتَّصَقَّتْ أَرْجُلُهَا
بِجِسْمِهَا الصَّغِيرِ.

وَلَكِنَّهَا رَأَتْ — لِحُسْنِ حَظِّهَا — حَقْلًا عَلَى قَيْدِ (مَسَافَةٍ) خُطُواتِ مِنْهَا.
وَلَاحَتْ أَمَامَهَا سَنَايِلُ الْقَمْحِ الدَّهَبِيَّةِ فُخِيلٌ إِلَيْهَا أَنَّهُ غَابَةٌ. فَاسْرَعَتْ إِلَى الْحَقْلِ، لِتَأْمَنَ
غَائِلَةَ الْمَطْرِ.

(٦) بَيْنَ سَنَايِلِ الْقَمْحِ

وَمَشَتْ «أُمَّ مَازِنَ» بَيْنَ سَنَايِلِ الْقَمْحِ، تَبَحُّثٌ عَنِ مَكَانٍ جَافٍ، ثُمَّ وَقَفَتْ تَسْتَرِقُ السَّمْعَ،
وَتَقُولُ فِي نَفْسِهَا: «تُرَى هَلْ بَلَغَتْ الْمَأْمَنَ؟ تُرَى هَلْ يُفَاجِئُنِي أَحَدٌ مِنْ أَعْدَائِي فِي هَذَا
الْمَكَانِ؟ تُرَى مَاذَا تُخْبِئُهُ السَّنَابِلُ الْعَالِيَةُ مِنْ مُفَاجِئَاتٍ؟ مَا أَظُنُّ أَحَدًا فِيهَا، فَإِنِّي لَا
أَسْمَعُ حَرَكََةً لِكَائِنٍ كَانَ. فَلَأَبْقَ وَجِدَّةً فِي هَذَا الْحَقْلِ الْأَمِينِ.»
وَلَكِنَّهَا شَعَرَتْ بِالْبُرْدِ يَسْرِي فِي جِسْمِهَا. فَاشْتَدَّ نَدْمُهَا عَلَى خُرُوجِهَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ،
وَضَاعَفَ حُزْنُهَا أَنَّهَا بَعُدَتْ عَنِ بَيْتِهَا، وَتَعَدَّرَتْ عَوْدَتُهَا إِلَيْهِ.
وَقَالَتْ تُنَاجِي نَفْسَهَا، وَتَلُومُهَا عَلَى مُخَاطَرَتِهَا: «لَا شَكَّ أَنَّ أَخَوَاتِي سَيَتَأَلَّمْنَ، وَيَقْلُقُنَّ
بِالْهُنِّ لِغَيْبِي ... وَلَكِنْ مَاذَا أَرَى؟ إِنِّي لِأَلْمَحُ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِالسَّطْحِ فَوْقَ هَذِهِ السَّنَابِلِ ...
مَرَحَى فَقَدْ وَجَدْتُ بُغْيَتِي، فَلَأَتَسَلَّقَ هَذِهِ السَّاقَ الطَّوِيلَةَ، لِأَصْبِحَ آمِنَةً مِنْ كُلِّ خَطَرٍ.»
وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُدْ تَفْعَلُ، حَتَّى سَمِعَتْ صَوْتًا رَاعِبًا، يَصِيحُ قَائِلًا: «مَنْ الْقَادِمُ؟»
فَارْتَدَعَتْ «أُمَّ مَازِنَ» وَأَصْبَحَتْ — مِنْ فَرَطِ خَوْفِهَا — بِمَنْزِلَةٍ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ،
وَتَدَحَّرَجَتْ إِلَى الْأَرْضِ مُسْرِعَةً.

مُخَاطَرَاتُ أُمِّ مَازِنٍ

نُمَّ نَظَرْتُ «أُمِّ مَازِنٍ»، فَزَأْتُ دَابَّةَ سَمْرَاءَ اللَّوْنِ، هَابِطَةً مِنْ سُوقِ الْقَمَحِ. وَأَنْعَمَتِ النَّظَرَ فِيهَا، فَزَأْتُهَا هَائِلَةَ الْجَرْمِ، طَوِيلَةَ الْجِسْمِ، مُحَدَّدَةَ الرَّأْسِ، تَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ، وَلَهَا ذَنْبٌ صَغِيرٌ وَعَيْنَانِ بَرَّاقَتَانِ.

فَقَالَتْ «أُمِّ مَازِنٍ»، بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ، وَقَدْ اسْتَوَلَى عَلَيْهَا الذُّعْرُ: «عَفْوًا يَا سَيِّدَتِي، وَاصْفَحِي عَن زَلَّتِي، فَإِنَّهَا غَيْرُ مُتَعَمِّدَةٍ ... وَهَا أَنْتِ ذِي تَرَيْنِنِي مُبَلَّلَةَ الْجِسْمِ؛ وَقَدْ أَصْبَحْتُ أَجْدَرَ مَخْلُوقَةٍ بِالْعَطْفِ وَالرِّثَاءِ. وَقَدْ أَوَيْتُ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ — لِحِظَّةٍ يَسِيرَةٍ — لَعَلِّي أَمِنُ الْأَخْطَارَ، وَأَتَقِي الْغَوَائِلَ. وَلَمْ أَكُذِّبْكَ تَحْتَ السَّنَابِلِ ...»

فَقَاطَعَتْهَا الدَّابَّةُ السَّمْرَاءُ قَائِلَةً: «لَعَلَّكَ تَعْنِينِ بَيْنَنَا!»

فَقَالَتْ «أُمِّ مَازِنٍ»: «عُدْرًا — يَا سَيِّدَتِي — وَصَفْحًا. فَإِنَّ الْمَطَرَ قَدْ كَفَّ عَنِ الْهُطُولِ، فِيمَا أَظُنُّ، وَفِي قُدْرَتِي أَنْ أَعُودَ أَدْرَاجِي، إِذَا أُنْذِنْتَ لِي، حَتَّى لَا أُرْعَجَكَ.»

فَقَالَتْ لَهَا الدَّابَّةُ السَّمْرَاءُ: «تَرَيْتِي قَلِيلًا، فَلَنْ أَدَنْ لَكَ، قَبْلَ أَنْ أَسْأَلَ أُمِّي فِي أَمْرِكَ!»

فَقَالَتْ «أُمِّ مَازِنٍ»: «كَلَّا، كَلَّا — يَا سَيِّدَتِي — لَا تُتَادِيهَا، وَدَعِينِي أَمْضٍ فِي سَبِيلِي؛ فَإِنِّي جِدُّ خَائِفَةٍ. وَحَقٌّ لِي أَنْ أَخَافَ، فَإِنَّ هَذِهِ هِيَ أَوَّلُ مَرَّةٍ أُخْرَجُ فِيهَا مِنْ قَرِيْبَتِي ... وَلَسْتُ أَعْرِفُ أَحَدًا ...»

فَقَالَتِ الدَّابَّةُ السَّمْرَاءُ: «إِنِّي أَجْهَلُكَ، وَلَا أَعْرِفُ أَيَّ مَخْلُوقٍ أَنْتِ. فَمَنْ تَكُونِينَ؟»

فَقَالَتْ لَهَا «أُمِّ مَازِنٍ»: «أَنَا نَمْلَةٌ صَغِيرَةٌ سَوْدَاءُ ...»

فَصَاحَتِ الدَّابَّةُ: «نَمْلَةٌ أَنْتِ؟ كَلَّا، وَكَذَّبْتِ فِي زَعْمِكَ. فَإِنَّ أُمِّي قَدْ أَرْتَنِي نَمْلَةً — ذَاتَ يَوْمٍ — لَهَا أَرْبَعَةٌ أَجْنَحَةٌ بِيضٌ. وَلَسْتُ أَرَى لَكَ أَجْنَحَةً ... وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّكَ لَسْتِ نَمْلَةٌ كَمَا تَزْعُمِينَ!»

فَقَالَتْ لَهَا «أُمِّ مَازِنٍ»: «كَلَّا، يَا سَيِّدَتِي، فَإِنِّي لَمْ أَكْذِبْكَ شَيْئًا مِمَّا قُلْتُ ... وَإِنَّمَا أَنَا نَمْلَةٌ عَامِلَةٌ ... وَكَأَنَّ لِبَنَاتِ جِنْسِي أَجْنَحَةً، مَا عَدَا الْآبَاءَ وَالْأُمَّاتِ أَمَّا الْعَامِلَاتُ — مِنْ مِثْلَاتِي — فَلَا أَجْنَحَةَ لَهُنَّ.»

فَقَالَتِ الدَّابَّةُ السَّمْرَاءُ: «أَعَامِلَةٌ أَنْتِ إِذَنْ؟ شَدَّ مَا تُضْجِكِينِي بِهَذِهِ الْمُدَاعَبَةِ الظَّرِيفَةِ! إِنِّي لِأَحَارٌ، إِذَا حَاوَلْتُ أَنْ أَتَعَرَّفَ: أَيُّ فَائِدَةٍ تَعُودُ عَلَيَّ أَحَدٌ، مِنْ حَشْرَةٍ صَغِيرَةٍ فِي مِثْلِ صَالَتِكَ؟ وَمَاذَا يَسْتَطِيعُ مِثْلُكَ أَنْ يَعْمَلَ وَهُوَ بِهَذِهِ الْحَقَارَةِ؟»

مُخَاطَرَاتُ أُمِّ مَازِنَ

فَأَجَابَتْهَا «أُمُّ مَازِنَ»: «إِنِّي لَمَّا أَبَدْتُ عَمَلِي كُلَّهُ. فَلَمْ أَزَلْ حَدِيثَةً عَهْدٍ بِالدُّنْيَا، وَلَقَدْ دَهَمْتَنِي الْعَاصِفَةُ، وَلَمْ أَكُدْ أَنْتَهِيَ مِنْ حَلْبِ بَقْرَاتِنَا.»

فَعَجِبَتِ الدَّابَّةُ السَّمْرَاءُ، وَقَالَتْ لَهَا، جِدِّ مَدْهُوشَةً: «أَيُّ بَقْرَاتٍ تَعْنِينَ، أَيَّتُهَا الْبُلْهَاءُ؟ أَهِيَ بَقْرَاتٌ حَقِيقِيَّةٌ، ذَاتُ قُرُونٍ، كَالَّتِي نَرَاهَا فِي الْحُقُولِ؟ شَدَّ مَا طَوَّحَ بِكَ الْخِيَالُ، فَأَصْبَحْتَ تَسْبَحِينَ فِي عَالَمِ الْأَحْلَامِ، أَيَّتُهَا الصَّغِيرَةُ الْحَمَقَاءُ! كَيْفَ تُحَاوِلِينَ أَنْ تُقْنِعِينِي أَنْ نَمَلَّةٌ ضَيْلَةٌ مِثْلُكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْلُبَ بَقْرَةً كَبِيرَةً الْحَجْمِ هَائِلَةً الْجُرْمِ؟ ... ها ها ها ...!»

فَقَالَتْ «أُمُّ مَازِنَ»: «إِنَّ بَقْرَاتِنَا — يَا سَيِّدَتِي — صَغِيرَةٌ جِدًّا. إِنَّهَا — لَوْ عَلِمْتَ — بَرَاغِيثٌ، ضَيْلَةٌ الْحَجْمِ، تَعِيشُ فَوْقَ الْأَشْجَارِ. وَقَدْ كُنْتُ — الْيَوْمَ — أَدَاعِبُهَا بِقَرْنِي مُتَلَطِّفَةً، فَيَدِيرُ جِسْمَهَا عَلَيَّ قَطْرَاتٍ لَذِيذَةَ الطَّعْمِ، فِي مِثْلِ حَلَاوَةِ السُّكَّرِ. وَلَقَدْ شَعَرْتُ الْآنَ بِأَلَمِ الْجُوعِ. فَهَلْ تَأْذَنِينَ لِي — مُتَفَضِّلَةً — أَنْ أَعُودَ إِلَى بَقْرَاتِي، فَأَحْلُبُهَا، وَأَسْتَدِرَّ مِنْهَا طَعَامِي الشَّهِيِّ، ثُمَّ نَلْتَقِي بَعْدُ؟»

فَاقْتَرَبَتِ الدَّابَّةُ السَّمْرَاءُ مِنْ «أُمِّ مَازِنَ»، وَنَظَرَتْ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهَا الْكَبِيرَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَتْ لَهَا: «كَلَّا ... كَلَّا ... لَنْ أَدْنَ لَكَ فِي الذَّهَابِ، وَلَنْ أَسْمَحَ لَكَ بِالْإِنْصِرَافِ، قَبْلَ أَنْ تُخْبِرِينِي بِاسْمِكَ.»

فَارْتَاعَتْ «أُمُّ مَازِنَ» الْمُسْكِينَةَ، وَتَرَاجَعَتْ إِلَى الْوَرَاءِ مَذْعُورَةً. فَقَالَتْ لَهَا الدَّابَّةُ السَّمْرَاءُ: «هَلْمِي، فَخَبِّرِينِي بِاسْمِكَ ... أَجِيبِي!» فَأَجَابَتْهَا بِصَوْتٍ خَافِتٍ مَحْزُونٍ: «اسْمِي: أُمُّ مَازِنَ.» فَقَالَتْ لَهَا الدَّابَّةُ السَّمْرَاءُ: «أَمَّا أَنَا، فَيَدْعُونَنِي بِ«أُمِّ رَاشِدٍ».» فَقَالَتْ «أُمُّ مَازِنَ»: «مَا أَبْدَعَهَا كُنْيَةً، يَا عَزِيزَتِي: أُمِّ رَاشِدٍ!» فَاهْتَرَتْ «أُمُّ رَاشِدٍ» قَائِلَةً: «إِنِّي فَارَّةٌ صَغِيرَةٌ، أَسْكُنُ مَعَ أَهْلِ هَذَا الْعُشِّ الَّذِي تَرَيْنَهُ فَوْقَ رَأْسِنَا.»

فَنَظَرَتْ «أُمُّ مَازِنَ»، فَارَأَتْ — فِي أَعْلَى سَنَابِلِ الْقَمْحِ — كُرَّةً كَبِيرَةً مُعَلَّقَةً بَيْنَهَا. فَصَاحَتْ مَدْهُوشَةً: «كَيْفَ تَقُولِينَ؟ أَهَذَا هُوَ عُشُّكَ، يَا «أُمِّ رَاشِدٍ»؟ إِنَّهُ لَا يُمَاطِلُ بَبُوتَ النَّمْلِ.»



(٧) «أُمُّ أَدْرَاصٍ»

وَصَاحَتْ «أُمُّ رَاشِدٍ» تُنَادِي أُمَّهَا بِأَعْلَى صَوْتِهَا. فَخَرَجَتْ مِنَ الْعُشِّ فَارَةً أَكْبَرَ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَتْ لَهَا، وَهِيَ تُدَانِيهَا: «أَه! هَا أَنْتِ نِي، يَا بِنْتِي الْعَزِيزَةَ. وَقَدْ كُنْتُ فِي قَلْقٍ عَلَيْكِ — يَا أُمَّ رَاشِدٍ» — فَمَا تَصْنَعِينَ هُنَا وَحَدِّكِ؟»

فَأَجَابَتْهَا «أُمُّ رَاشِدٍ»: «لَسْتُ هُنَا وَحْدِي، يَا أُمِّي، فَاظْطَرِّي إِلَى هَذِهِ الزَّائِرَةِ الصَّغِيرَةِ.» فَقَالَتْ «أُمُّ أَدْرَاصٍ»: «أَه! صَدَقْتِ، يَا أُمَّ رَاشِدٍ»، فَإِنَّهَا نَمَلَةٌ. وَمَا أَظْنُهَا إِلَّا شَارِدَةً ضَلَّتِ الطَّرِيقَ إِلَى بَيْتِهَا. أَلَيْسَ كَذَلِكَ، أَيُّهَا النَّمَلَةُ الصَّغِيرَةُ؟»

فَلَمْ تَسْتَطِعْ «أُمُّ مَازِنٍ» أَنْ تَجِيبَهَا بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ. فَاظْبَرَتْ «أُمُّ رَاشِدٍ» قَائِلَةً: «إِنَّهَا تُدْعَى «أُمُّ مَازِنٍ»، وَقَدْ دَهَمَتْهَا الْعَاصِفَةُ، فِيمَا تَقُولُ.» فَقَالَتْ «أُمُّ أَدْرَاصٍ»: «خَبْرِي، يَا صَغِيرَتِي الْعَزِيزَةَ: أَلَسْتَ تَقْطِنِينَ تِلْكَ الْقَرْيَةَ الْعَامِرَةَ، الَّتِي فِي أَسْفَلِ شَجَرَةِ الْبُرْقُوقِ الْكَبِيرَةِ؟»

فَأَجَابَتْهَا «أُمُّ مَازِنَ»: «صَدَقْتَ — يَا سَيِّدَتِي — فَإِنَّ بَيْنَنَا هُنَاكَ، بِالْقُرْبِ مِنْ جِذْعِ تَلِكِ الشَّجَرَةِ.»

فَقَالَتْ «أُمُّ رَاشِدٍ»: «لَعَلَّ أُمَّكَ شَدِيدَةُ الْقَلْقِ عَلَيْكَ، بَعْدَ أَنْ طَالَتْ غَيْبَتُكَ!»

فَقَالَتْ «أُمُّ مَازِنَ»: «تَقُولِينَ: أُمِّي، وَلَسْتُ أَعْرِفُ أَنَّ لِي أُمَّاً وَلَدْتَنِي؟!»

فَسَأَلَتْهَا «أُمُّ رَاشِدٍ»: «أَتَعْنِينَ أَنَّهَا قَدْ مَاتَتْ؟»

فَأَجَابَتْهَا «أُمُّ مَازِنَ»: «ذَلِكَ مَا أَجْهَلُهُ الْجَهْلُ كُلُّهُ فَإِنِّي لَمْ أَرَهَا قَطُّ!»

فَسَأَلَتْهَا «أُمُّ رَاشِدٍ»: «إِذَا فَمَنْ كَانَ يَتَعَهَّدُكَ بِالْغِذَاءِ، فِي أَثْنَاءِ طُفُولَتِكَ؟»

فَقَالَتْ «أُمُّ مَازِنَ»: «كَانَتْ مُرْضِعَاتُنَا الْعَامِلَاتُ يَتَعَهَّدُنَا، وَيَسْهَرْنَ عَلَيَّ رَاحَتِنَا. وَإِنِّي

أَوْكِدُ لَكَ أَنَّهُنَّ لَمْ يَقْصِرْنَ فِي تَلْبِيَةِ رَغَابَتِنَا، وَالْعِنَايَةِ بِأَمْرِنَا.»

فَقَالَتْ «أُمُّ رَاشِدٍ»: «الَيْسَ لَكَ مِثْلُ مَا لَنَا — مَعْشَرَ الْفَارِ — أُمَّاً حَنُونًا، تَتَعَهَّدُكَ بِبِرِّهَا

وَعَطْفِهَا؟ يَا لَكَ مِنْ شَقِيَّةٍ تَاعَسَا!»

فَقَالَتْ «أُمُّ مَازِنَ»: «إِنَّ لَنَا — مَعْشَرَ النَّمْلِ — أُمَّاتٍ. وَلَكِنَّهُنَّ يُحْبَسْنَ فِي غُرْفَةٍ بَعَيْنِهَا

— مِنْ غُرْفِ الْقَرْيَةِ — وَيَقْضِينَ فِيهَا أَعْمَارَهُنَّ كُلَّهَا لِيَبْضُنَ.

وَقَدْ حَدَّثُونِي أَنَّنِي حِينَ كُنْتُ إِحْدَى ذَلِكَ الْبَيْضِ الصَّغِيرِ ...»

فَقَاطَعَتْهَا «أُمُّ رَاشِدٍ» قَائِلَةً: «لَقَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الطُّيُورَ هِيَ — وَحْدَهَا — الَّتِي

تَبْيِضُ!»

فَقَالَتْ «أُمُّ مَازِنَ»: «نَعَمْ، وَكُنْتُ — مُنْذُ زَمَنِ يَسِيرٍ — شَيْئًا مُسْتَدِيرًا، غَايَةً فِي الصَّغَرِ،

وَلَمْ يَكُنْ لِي رَأْسٌ، وَلَا أَرْجُلٌ، وَلَا أَعْيُنٌ ... وَلَسْتُ أَذْكَرُ ذَلِكَ الزَّمْنَ جَيِّدًا.»

فَقَالَتْ «أُمُّ رَاشِدٍ»، ضَاحِكَةً: «لَقَدْ فَهَمْتُ مَا تَعْنِينَ، فَقَدْ كُنْتُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ جَنِينًا؛ لَمْ

تَتِمَّ خَلْقَتُهُ، وَلَمْ يَتَكَوَّنْ رَأْسُهُ بَعْدُ.»

وَاسْتَأْنَفَتْ «أُمُّ مَازِنَ» قَائِلَةً: «وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ انْشَقَّ ذَلِكَ الْبَيْضُ — فِيمَا حَدَّثْتَنِي

مُرْضِعَتِي «أُمُّ مَشْغُولٍ» — وَخَرَجَتْ مِنْ وَاحِدَةٍ مِنْهُ: دُودَةٌ بَيْضَاءُ. وَكَانَتْ هَذِهِ الدُّودَةُ هِيَ

أَنَا!

وَقَدْ كُنْتُ — حِينئِذٍ — جِدًّا سَعِيدَةً. وَكَانَتْ الْمُرْضِعَاتُ يُغَدِّينَنِي — فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ —

كُلَّ صَبَاحٍ، ثُمَّ يَحْمِلُنَنِي إِلَى ضَوْءِ الشَّمْسِ، وَيَذْلُكُنْ جِسْمِي، وَيَلْعَقُنَهُ، حَتَّى إِذَا أَمْسَيْتُ

مُخَاطَرَاتُ أُمِّ مَازِنَ

حَمَلَنِي إِلَى الْبَيْتِ ... وَقَدْ انْقَضَى هَذَا الزَّمَنُ السَّعِيدُ إِلَى غَيْرِ عَوْدَةٍ؛ فَمَا كَانَ أَطْيَبَهُ، وَأَرْوَحَ ذِكْرَاهُ!

ثُمَّ أَصَبْتُ بِمَرَضٍ، خَبِلَ إِلَيَّ أَنْ أَخْرَجْتِي قَدْ قَرَبْتُ، وَأَصْبَحْتُ لَا أُسْتَسِيغُ الطَّعَامَ، وَلَا أُسْتَمَرَّى الْغِذَاءَ؛ وَيَسْتُ مِنْ الْبَقَاءِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَوَطَنْتُ نَفْسِي عَلَى لِقَاءِ الْمَوْتِ.

وَتَمَّةٌ سَمِعْتُ صَوْتًا يَصِيحُ: «تَغَطِّيْ أَيْتَهَا الدُّوْدَةُ الصَّغِيرَةُ، وَالتَّفِّيْ بِهَذَا الْخَيْطِ الدَّقِيقِ، الَّذِي تُخْرِجِينَهُ مِنْ فَمِكَ.»

فَلَبَّيْتُ ذَلِكَ الدُّعَاءَ مِنْ فَوْرِي ... وَلَمْ أَكْذُ أَفْعَلُ، حَتَّى وَجَدْتَنِي مَحْبُوسَةً فِي كَيْسٍ! فَقَالَتْ «أُمُّ رَاشِدٍ» مُتَبَرِّمَةً: «مَحْبُوسَةٌ دَاخِلَ كَيْسٍ؟ لَوْ صَحَّ ذَلِكَ لَأَخْتَنَقْتُ، أَيْتَهَا الْمُسْكِينَةُ التَّاعِسَةُ!»

فَقَالَتْ «أُمُّ مَازِنَ»: «كَلَّا، لَمْ أَخْتَنِقْ، بَلْ نِمْتُ نَوْمًا عَمِيقًا وَانْتَقَلْتُ — مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ — مِنْ طَوْرِ الدُّودِيَّةِ إِلَى طَوْرِ النَّمْلِيَّةِ. فَأَصْبَحْتُ — حِينِيذٍ — عَرُوسًا مِنْ عَرَائِسِ النَّمْلِ، مَلْفُوفَةً فِي أَفْوَافِ الْحَرِيرِ.

وَلَمَّا اسْتَيْقَظْتُ مِنْ سُبَاتِي (نَوْمِي الْعَمِيقِ) أَلْفَيْتَنِي قَدْ انْتَقَلْتُ إِلَى حَالٍ مُغَايِرَةٍ لِحَالِي الْأَوَّلَى كُلِّ الْمَغَايِرَةِ. فَأَصْبَحْتُ مَخْلُوقَةً أُخْرَى وَصَارَ لِي سِتُّ أَرْجُلٍ، وَانْقَسَمَ جِسْمِي أَقْسَامًا ثَلَاثَةً؛ فَاسْتَوَى عَلَيَّ الْفَرْحُ، وَصَحْتُ مُبْتَهَجَةً: «مَرْحَى! مَرْحَى! لَقَدْ أَصْبَحْتُ الْآنَ فِي عِدَادِ الْحَشَرَاتِ!»

عَلَى أَنْ فَرَجِي لَمْ يَدُمْ طَوِيلًا، فَقَدْ كَانَ قَصِيرَ الْمَدَى. وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّي كُنْتُ — إِلَى ذَلِكَ الْحِينِ — سَجِينَةً فِي الْكَيْسِ الَّذِي حَدَّثْتُكَ عَنْهُ. وَلَمْ أَكُنْ — حِينِيذٍ — أُسْتَطِيعُ جِرَاكًا. وَتَمَّةٌ أَيْقَنْتُ بِالْهَلَاكِ مَرَّةً أُخْرَى، وَحَزَنْتُ لِذَلِكَ، فَاسْتَسَلَّمْتُ لِلْبُكَاءِ.»

فَصَاحَتْ الْفَارَاتَانِ: «لَيْكَ اللهُ، أَيْتَهَا الصَّدِيقَةُ التَّاعِسَةُ!»

وَاسْتَأْنَفْتُ «أُمُّ مَازِنَ» قَائِلَةً: «ثُمَّ لَبَّيْتُ أَبِيَّ وَقَتْنَا طَوِيلًا. وَإِنِّي لَغَارِقَةٌ فِي أَحْزَانِي، مُسْتَسَلِّمَةٌ لِأَلَامِي، إِذْ طَرَقَ سَمْعِي دَيْبِبُ خُطُواتٍ. فَصَحْتُ مَعُوْتَةً أَطْلُبُ النَّجْدَةَ. ثُمَّ شَعَرْتُ بِأَنَّ رَفِيقَاتِي الْكَبِيرَاتِ يَنْقُبْنَ تِلْكَ الْقَشْرَةَ الَّتِي تُحِيطُ بِجِسْمِي. وَمَا كُنْتُ يَنْتَهِيَنَّ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى اقْتَرَبْتُ مِنِّي إِحْدَى الْعَامِلَاتِ، فَأَمْسَكَتْ بِرَقَبَتِي، وَجَرَّتَنِي إِلَيْهَا، بِكُلِّ مَا أُوتِيَتْ مِنْ قُوَّةٍ. فَصَرَخْتُ مُتَأَلِّمَةً: «أَه! تَرَفَّقِي بِي — يَا سَيِّدَتِي — فَقَدْ أَلَمَّتَنِي أَشَدَّ الْأَلَمِ!»

مُخَاطَرَاتُ أُمِّ مَازِنَ

وَكَانَتْ تِلْكَ الْمُرْضِعَةُ — فِيمَا يُخَيَّلُ إِلَيَّ — صَمَاءَ، لَا تَسْمَعُ. فَقَدْ ظَلَّتْ تَجْرُنِي، وَلَمْ تَأْبَهُ لِصِيحَاتِي، وَلَمْ تُصْغِ لِتَأْوِهَاتِي، وَأَقْتَرَبَتْ جَمَهَرَةً مِنَ الْعَامِلَاتِ لِيُسَاعِدَنَهَا فِي ذَلِكَ. وَمَا كِدَنْ يَفْعَلُنَّ، حَتَّى سَمِعْتُ صَوْتَ الْقِشْرَةِ الَّتِي تَكْتَنِفُ جِسْمِي، وَهِيَ تَتَكَسَّرُ. وَهَكَذَا خَرَجْتُ مِنْ سِجْنِي الضَّيِّقِ، وَأَنَا أَضْعَفُ مَا أَكُونُ. وَقَدْ أُغْمِيَ عَلَيَّ مِنْ فَرْطِ الْأَلَمِ وَالضَّنَى.

ثُمَّ أَحَاطَتْ بِي الْمُرْضِعَاتُ الْحَانِيَاتُ، وَالْعَامِلَاتُ الرَّفِيقَاتُ، وَظَلَلْنَ يَدُلْكُنَّ جِسْمِي، حَتَّى أَيْقَظَنِي مِنْ عَشِيَّتِي، وَأَعَدْنَ إِلَيَّ رُشْدِي بَعْدَ زَمَنِ قَلِيلٍ ... ثُمَّ مَرَّتْ بِي أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ، فَشَعَرْتُ بِالْقُوَّةِ تَسْرِي فِي جَسَدِي شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى أَصْبَحْتُ كَمَا تَرَيَانِ، أَيُّهَا الصَّدِيقَتَانِ!

(٨) فِي طَرِيقِ النَّمْلِ

فَقَالَتْ «أُمُّ أَدْرَاصٍ»: «مَا أَجْمَلَ قِصَّتِكَ، يَا «أُمِّ مَازِنِ». فَوَدَاعًا أَيُّهَا الصَّدِيقَةُ الصَّغِيرَةُ، فَإِنَّ زَوْجِي «أَبَا أَدْرَاصٍ» لَا يَزَالُ — كَمَا تَرَكْتُهُ — وَحِيدًا فِي عِشَّةٍ. فَلَاذْهَبْ إِلَيْهِ مَعَ ابْنَتِي «أُمِّ رَاشِدٍ».

فَوَدَّعَتْهُمَا «أُمِّ مَازِنِ»، وَأَسْرَعَتِ الْفَارَتَانِ إِلَى عِشَّتِهِمَا، وَحَيَّتَا صَدِيقَتَهُمَا، وَهُمَا تَتَسَلَّقَانِ سَنَايِلَ الْقَمْحِ، فِي خِفَّةٍ وَرَشَاقَةٍ.

وَاسْتَخَفَّتْ «أُمِّ مَازِنِ» بَيْنَ سَنَايِلِ الْقَمْحِ. وَظَلَّتْ تُوَاصِلُ سَيْرَهَا، حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى سَهْلٍ فَسِيحٍ. فَلَمْ تَهْتَدِ إِلَى سَبِيلِهَا الَّتِي تَسْلُكُهَا إِلَى بَيْتِهَا، وَأَيَّقَنْتْ أَنَّهَا قَدْ ضَلَّتْ الطَّرِيقَ. وَحَارَتْ فِي أَمْرِهَا، فَلَمْ تَدْرِ: كَيْفَ تَصْنَعُ؟



وإنَّها لتَسِيرُ مُعْتَسِفَةً (على غيرِ هُدًى)، إذْ أَبْصَرَتْ لِحْسِنَ حَظِّهَا طَرِيقَ النَّمْلِ. وَوَلَّاحَ لَهَا سَطْحُ بَيْتِهَا الْعَالِي، فَصَاحَتْ مُبْتَهِجَةً مَسْرُورَةً: «يا لَهَا مِنْ سَعَادَةٍ! لَقَدْ اهْتَدَيْتُ إِلَى وَاوَدِينَا الْعَامِرِ.»

وَلَكِنَّهَا شَعَرَتْ بِالْأَلَمِ الْجُوعِ، فَاتَّارَتْ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى بَقَرَاتِهَا لِتَحْلُبُهَا. وَثُمَّ أَسْرَعَتْ إِلَى شَجَرَةِ الْبُرْقُوقِ، حَيْثُ رَأَتْ جَمَهْرَةً مِنْ رَفِيقَاتِهَا: دَائِبَةَ الْحَرَكَةِ، مَوْفُورَةَ النَّشَاطِ، بَيْنَ رَائِحَةِ وَغَايِدِيَّةِ.

وَمَا إِنْ أَبْصَرَتْ إِحْدَى شَقِيقَاتِهَا وَهِيَ تَدَانِيهَا، حَتَّى ضَرَبَتْ رَأْسَهَا بِقَرْنَيْهَا — وَهَذِهِ لُغَةُ الْكَلَامِ عِنْدَ النَّمْلِ — ثُمَّ تَبَادَلَتَا تَحِيَّةً مُقْتَضِبَةً، لِأَنَّ النَّمْلَ دَائِبَ الْعَمَلِ، وَهُوَ مَشْغُولٌ أَبَدًا، لَا يَرْضَى أَنْ يُضِيعَ وَقْتًا فِي تَرْتَرَةٍ لَا طَائِلَ تَحْتَهَا.

فَقَالَتْ لَهَا أُخْتُهَا: «ها أَنْتِ ذِي قَادِمَةٍ، يا «أُمَّ مَازِنِ». فَمِنْ أَيْنَ أَتَيْتِ؟»

فَقَالَتْ لَهَا «أُمَّ مَازِنِ»، وَهِيَ مُسْتَأْنِفَةٌ سَيْرِهَا: «لَقَدْ جُلْتُ جَوْلَةً قَصِيرَةً، فَدَهَمْتَنِي الْعَاصِفَةُ.»

ثُمَّ قَابَلَتْهَا نَمْلَةٌ أُخْرَى؛ فَقَالَتْ لَهَا: «سُعِدَ يَوْمُكَ، يا «أُمَّ مَازِنِ».

أَذَاهِبَةُ أَنْتِ لِتَحْلُبِي بَقَرَاتِنَا؟ سِيرِي مُتَيَقِّظَةً حَذِرَةً، فَإِنَّ عَصْفُورًا يَرْتُقِبُكَ مِنْ أَعْلَى شَجَرَةِ الْبُرْقُوقِ. فَحَذَارِ أَنْ تَذْهَبِي فَرِيسَةً لَهُ!»

فَقَالَتْ «أُمَّ مَازِنِ»: «شُكْرًا لَكَ — يا «أُمَّ نُوْبَةَ» — عَلَى نَصِيحَتِكَ. وَدَاعًا يَا عَزِيزَتِي!»

ثُمَّ أَبْصَرَتْ مُرْضِعَتَهَا «بِنْتَ الشَّيْصَبَانِ»، فَقَالَتْ لَهَا، مُبْتَهِجَةً بِلُقْيَاها: «حُبِّيْتُ يَا «بِنْتَ الشَّيْصَبَانِ»، وَسُعِدَ يَوْمُكَ! أَقَادِمَةٌ أَنْتِ مِنْ هَذَا التَّقْبِ؟»

مُخَاطَرَاتُ أُمِّ مَازِنَ

فَأَجَابَتْهَا بِنْتُ الشَّيْصَابِ: «صَدَقْتِ، يَا «أُمِّ مَازِنِ»! آه، لَوْ عَلِمْتِ — يَا بُنَيَّتِي —
مَا أَصَابَنِي الْيَوْمَ مِنْ أَلَمٍ وَشَقَاءٍ؟ لَقَدْ فُقِئْتُ إِحْدَى عُيُونِي، مُنْذُ لَحْظَةٍ، وَقَدْ أَصْبَحْتُ —
لِتَعَاسَتِي — لَا أَكَادُ أَبْصُرُ شَيْئًا.»
فَقَالَتْ «أُمِّ مَازِنِ»: «مُسْكِينَةٌ أَنْتِ، يَا «بِنْتَ الشَّيْصَابِ»، فَالْبَيْتِ قَلِيلًا، فَإِنِّي سَأَصْحَبُكَ
فِي عَوْدَتِكَ إِلَى الْقَرْيَةِ.»

(٩) فِي بُرْقُوقَةٍ

ثُمَّ أَسْرَعَتْ «أُمِّ مَازِنِ» إِلَى غُصْنِ الشَّجَرَةِ، وَرَجَّتْ نَفْسَهَا بَيْنَ أَوْرَاقِهَا، بَاحِثَةً عَنْ بَقَرَاتِهَا،
فَلَمْ تَجِدْ — فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ — بُرْغُومًا تَحْتَلِبُهُ. وَلَكِنَّهَا عَثَرَتْ عَلَى بُرْقُوقَةٍ كَبِيرَةٍ، ذَهَبِيَّةِ اللَّوْنِ،
وَكَانَ بَعْضُ الْعَصَافِيرِ قَدْ شَقَّهَا. فَقَالَتْ «أُمِّ مَازِنِ» تُحَدِّثُ نَفْسَهَا: «مَا أَحْجَبَنِي إِلَى هَذَا
الطَّعَامِ. فَلَا تَدْوِقُهُ لِأَسَدٍ جُوعِي!»

وَلَمْ تَكَدْ تَلْعُقُ عَصِيرَهَا، حَتَّى قَالَتْ، مُبْتَهَجَةً بِهَذَا الْغِذَاءِ الْفَاخِرِ الشَّهِيِّ: «مَا أَلَذَّهُ
طَعَامًا، وَأَشْهَاهُ غِذَاءً! لَقَدْ اهْتَدَيْتُ إِلَى طَعَامٍ آخَرَ، غَيْرَ لَبَنِ الْبِرَاغِيثِ الصَّغِيرَةِ.» ثُمَّ لَبِثَتْ
«أُمِّ مَازِنِ» عَلَى الْبُرْقُوقَةِ الشَّهِيَّةِ زَمَنًا طَوِيلًا، وَأَنْسَتَهَا حَلَاوَتُهَا كُلَّ شَيْءٍ، وَظَلَّتْ تَأْكُلُ مِنْهَا
فِي شَرِّهِ عَجِيبٍ. وَإِنَّهَا لَمَقْبِلَةٌ عَلَى امْتِصَاصِهَا، إِذْ بِالْبُرْقُوقَةِ تَرْقُصُ فِي الْفُضَاءِ، ثُمَّ تَتَرَجَّحُ
يَمْنَةً وَيَسْرَةً!

وَأَحْسَسَتْ «أُمِّ مَازِنِ» ذَلِكَ الْخَطَرَ الدَّاهِمَ، فَتَشَبَّثَتْ بِهَا مُسْتَمِيئَةً، وَأَمْسَكَتْهَا بِكُلِّ مَا
أَوْثِقَتْ مِنْ قُوَّةٍ، وَهِيَ لَا تَدْرِي: مَاذَا حَدَثَ؟
ثُمَّ اهْتَرَّتِ الْبُرْقُوقَةُ هِرَّةً أُخْرَى، فَهَوَّتْ إِلَى الْأَرْضِ، وَأُغْمِيَ عَلَى «أُمِّ مَازِنِ» وَهِيَ جَائِمَةٌ
فِي وَسَطِ الثَّمَرَةِ.

(١٠) فِي بَيْتِ «فَاضِلٍ»

وَلَعَلَّكُمْ تُحِبُّونَ أَنْ تَعْرِفُوا — أَيُّهَا الْأَطْفَالُ الْأَعْرَاءُ — السَّرَّ فِيمَا حَدَثَ. وَإِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكُمْ
حَقِيقَةَ الْأَمْرِ: لَقَدْ جَاءَ «فَاضِلٌ» الصَّغِيرُ — وَهُوَ غُلَامٌ فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ عُمُرِهِ تَقْرِيبًا —

مُخَاطَرَاتُ أُمِّ مَازِنَ

وظَلَّ يَهْرُ شَجَرَةَ الْبُرْقُوقِ، لِيَمْلَأَ سَلْتَهُ بِذَلِكَ التَّمْرِ الشَّهِيِّ، لِيُعِدَّ مِنْهَا فَطَائِرَ لَذِيذَةً. وَكَانَتْ بُرْقُوقَةً «أُمُّ مَازِنَ» أَوَّلَ مَا سَقَطَ مِنَ الشَّجَرَةِ.

وَمَا زَالَ «فَاضِلٌ» يَهْرُ شَجَرَةَ الْبُرْقُوقِ، وَيَضَعُ فِي سَلْتِهِ مَا يَسْقُطُ مِنْهَا، حَتَّى امْتَلَأَتْ، فَعَادَ بِهَا إِلَى بَيْتِهِ.

أَرَأَيْكُمْ تَتَسَاءَلُونَ عَن مَصِيرِ «أُمِّ مَازِنَ»، لِتَتَعَرَّفُوا: مَاذَا أَصَابَهَا؟ أَكَانَ نَصِيبُهَا الْهَلَاكُ أَمِ النِّجَاةُ؟

فَاعْلَمُوا — أَيُّهَا الْأَصْدِقَاءُ الْأَعَزَّاءُ — عَلِمْتُمْ الْخَيْرَ، وَأَلْهِمْتُمْ الرُّشْدَ وَالسَّدَادَ — أَنَّ «أُمَّ مَازِنَ» لَمْ تَمُتْ، وَإِنَّمَا أُغْمِيَ عَلَيْهَا، مِنْ فَرْطِ الْأَلَمِ، وَلَيْبَتْ وَقْتًا طَوِيلًا، لَا تُبْدِي حَرَكَاتًا، وَلَكِنَّمَا اسْتَيْقِظَتْ وَجَدَتْ نَفْسَهَا ... يَا لِلْعَجَبِ! أَنْعَرِفُونَ: أَيَّنَ وَجَدَتْ نَفْسَهَا؟

لَقَدْ دُهِشَتْ «أُمُّ مَازِنَ» — كَمَا تَدْمَشُونَ — حِينَ رَأَتْ أَنَّهَا فِي وَسَطِ فَطِيرَةٍ، كَبِيرَةٍ مَصْنُوعَةٍ مِنَ الْبُرْقُوقِ.

وَقَفَرَ «فَاضِلٌ» الصَّغِيرُ فَرِحًا مَسْرُورًا بِتِلْكَ الْفَطِيرَةِ الْبُرْقُوقِيَّةِ الْجَمِيلَةِ وَقَالَ لِأُمِّهِ: «مَا أَجْمَلَ فَطِيرَتِكَ، يَا أُمَّي الْعَزِيزَةَ!

سَأُعْطِي «لَيْلَى» الصَّغِيرَةَ نِصْفَ نَصِيبِي مِنْهَا، لِأَنَّهَا مَرِيضَةٌ، وَأَنَا أَحِبُّ أَنْ أُدْخَلَ السُّرُورَ عَلَى قَلْبِهَا. فَهَلْ تُقَرِّبِينِي عَلَى ذَلِكَ؟

إِنَّ الْفُرْنَ مُوقَدَةٌ، فَلْنَضِعْ فِيهَا الْفَطِيرَةَ، لِتَنْضَجَهَا النَّارُ الْحَامِيَةُ بَعْدَ قَلِيلٍ.»

فَارْتَجَفَتْ «أُمُّ مَازِنَ»، وَقَالَتْ تَحَدُّثُ نَفْسَهَا: «أَه! لَقَدْ حَانَ حَيْنِي، بِلَا رَيْبٍ. وَلَوْ تَهَاوَنْتُ قَلِيلًا لَقَتَلْتَنِي نَارُ الْفُرَنِ الْحَامِيَّةِ. فَلَأَنْجُونَ بِنَفْسِي، قَبْلَ أَنْ أَسْتَهْدَفَ لِهَذَا الْخَطَرِ الدَّاهِمِ الْمُمِيتِ!»

والتفت «فاضل» إلى أمه بغتة، وقال لها: «يا للعجب! ألا تُبصِرِينَ هَذِهِ النَّمْلَةَ، يَا أُمَاهُ؟ إِنَّهَا تَتَنَزَّرُ عَلَى فَطِيرَتِنَا. فَيَا لَهَا مِنْ نَمَلَةٍ جَمِيلَةٍ الشَّكْلِ، ظَرِيفَةٍ الْمُنْظَرِ ... لَا بَدَّ مِنْ إِخْرَاجِهَا!»

فصاحت به «أم مازن»، وقد خشيت عاقبة هذا العمل: «حذارِ أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ، يَا فَاضِلُ». اتركني — بربك — أذهب إلى حيثُ أشاء.»

ولكن «فاضلًا» لم يفهم شيئًا مما تقول، لأنه لا يعرف لغة النمل.

وَنَمَّةَ أَمْسَكَ «أُمُّ مَازِنَ»، وَقَبِضَ عَلَيْهَا بِإِصْبَعَيْهِ فَنَوَّجَعَتْ، وَأَنْتَ مِنْ فَرَطِ الْأَكْمِ، وَقَالَتْ لَهُ ضَارِعَةٌ مُتَوَسِّلَةٌ: «شَدَّ مَا الْكَمْتَنِي قَبْضُهُ أَصَابِعِكَ، أَيُّهَا الْقَاسِي! فَدَعْنِي، وَإِلَّا اضْطُرِرْتُ إِلَى قَرْصِكَ.»
وَلَمْ يَفْهَمْ «فَاضِلٌ» شَيْئًا مِنْ وَعِيدِهَا، وَلَكِنَّهُ وَضَعَهَا فِي رَاحَةِ يَدِهِ مُتَرْفَعًا. ثُمَّ نَادَتْهُ أُمُّهُ، فَوَضَعَ «أُمُّ مَازِنَ» عَلَى الْمَائِدَةِ، وَخَفَّ إِلَى أُمِّهِ مُسْرِعًا.

(١١) فَضْلٌ مِنْ كِتَابِ

وَرَأَتْ «أُمُّ مَازِنَ» أَمَامَهَا فُرْصَةً سَانِحَةً لِلْهَرَبِ، فَذَلَّكَتْ مُسْرِعَةً مِنَ الْمَائِدَةِ، وَاحْتَبَّتْ فِي صُنْدُوقِ الْقُمَامَةِ (الْكُنَاسَةِ)، بَيْنَ فُتَاتِ الْخُبْزِ وَأَخْلَاطِ الطَّعَامِ. وَأَصْبَحَتْ — حِينَئِذٍ — أَمَنَةً مِنَ الْأَخْطَارِ. وَأَمْتَلَّتْ نَفْسُهَا غِبْطَةً وَسُرُورًا، حِينَ رَأَتْ «فَاضِلًا» يَعُودُ لِلْبَحْثِ عَنْهَا، وَفِي يَدِهِ مِصْبَاحٌ، وَأَبْصَرْتَهُ وَهُوَ يُفْتَشُّ عَنْهَا فِي أَرْجَاءِ الْمَطْبَخِ كُلِّهِ، عَلَى غَيْرِ طَائِلٍ.

وَجَاءَ «أَبُو فَاضِلٍ» فَسَأَلَ وَلَدَهُ: «مَاذَا تَصْنَعُ؟»

فَحَدَّثَهُ بِقِصَّةِ النَّمْلَةِ وَالْبُرْقُوقَةِ. فَانْتَهَرَ «أَبُو فَاضِلٍ» تِلْكَ الْفُرْصَةَ السَّانِحَةَ، وَظَلَّ يُحَدِّثُ وَلَدَهُ عَنْ خِصَائِصِ النَّمْلِ، وَمَزَايَاهُ، وَنَشَاطِهِ النَّادِرِ، وَحِيلِهِ الْعَجِيبَةِ. فَدَهَشَ «فَاضِلٌ»، وَأَعْجَبَ بِمَا سَمِعَ، وَقَالَ لِأَبِيهِ: «لَعَلَّ هَذَا أَعْجَبُ دَرَسٍ سَمِعْتُهُ فِي حَيَاتِي!»
وَرَأَى الْوَالِدُ أَنَّ ابْنَهُ لَا يَزَالُ فِي حَاجَةٍ إِلَى سَمَاعِ الْمَزِيدِ، فَقَالَ لَهُ: «مَا دُمْتَ تَطْلُبُ الْمَزِيدَ، فَانْهَبْ إِلَى هَذَا الْقِمَطِرِ، وَأَحْضِرِ السَّفَرَ الْعَاشَرَ مِنْ كِتَابِ «نَهَايَةِ الْأَرْبِ»، لِأَقْرَأَ عَلَيْكَ نُبْذَةً شَائِقَةً مِمَّا كَتَبَهُ مُؤَلِّفُهُ عَنِ النَّمْلِ.»

فَأَسْرَعَ «فَاضِلٌ» إِلَى الْقِمَطِرِ. وَأَحْضَرَ السَّفَرَ الْعَاشَرَ مِنْ «نَهَايَةِ الْأَرْبِ»، فَقَرَأَ عَلَيْهِ أَبُوهُ الْقِطْعَةَ الَّتِي اخْتَارَهَا لَهُ، مِنْ ذَلِكَ السَّفَرِ النَّفِيسِ وَإِلَيْكَ مَا اخْتَارَهُ:

وَالنَّمْلُ مِنَ الْحَيَوَانِ الْمُحْتَالِ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ. يَنْفَرُقُ لِذَلِكَ، فَاذَا وَجَدَ شَيْئًا أَنْذَرَ الْبَاقِينَ، فَيَأْتِينَ إِلَيْهِ، وَيَأْخُذْنَ مِنْهُ. وَكُلُّ وَاحِدٍ مُجْتَهِدٌ فِي إِصْلَاحِ شَأْنِ الْعَامَّةِ، غَيْرُ مُخْتَلِسٍ لِشَيْءٍ مِنَ الرِّزْقِ دُونَ صَحْبِهِ.

وَمِنْ تَحْيِيهِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ: أَنَّهُ رَبِّمَا وَضَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يُخَافُ عَلَيْهِ مِنْهُ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ مِنْ مَاءٍ أَوْ شَعْرٍ، فَيَنْسَلِقُ فِي الْحَائِطِ، وَيَمْشِي عَلَى

مُخَاطَرَاتُ أُمَّ مَازِنَ

جِدْعٍ مِنَ السَّقْفِ، حَتَّى يُسَامِتَ (يُقَابِلَ وَيُوَازِي) مَا حُفِظَ مِنْهُ، ثُمَّ يُلْقِي نَفْسَهُ عَلَيْهِ. وَفِي طَبَعِهِ وَعَادَتِهِ أَنْ يَحْتَكِرَ (يَجْمَعُ وَيَحْتَسِبُ) — فِي زَمَنِ الصَّيْفِ — لِرَمَنِ الشِّتَاءِ. وَهُوَ إِذَا خَافَ — عَلَى مَا يَدَّخِرُهُ مِنَ الْحُبُوبِ — الْعَفْنَ، وَالسُّوسَ، أَوْ التَّنَدِّيَّ مِنْ مُجَاوِرَةِ بَطْنِ الْأَرْضِ: أَخْرَجَهَا إِلَى ظَاهِرِ الْأَرْضِ، حَتَّى تَيْبَسَ، ثُمَّ يُعِيدُهَا. وَإِنْ خَافَ عَلَى الْحَبِّ أَنْ يَنْبُتَ مِنْ نَدَاوَةِ الْأَرْضِ، نَقَرَ فِي مَوْضِعِ الْقِطْمِيرِ مِنْ وَسَطِ الْحَبَّةِ (وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يَبْتَدِئُ مِنْهُ النَّبَاتُ)، وَيَقْلُقُ جَمِيعَ الْحَبِّ أَنْصَافًا. فَإِنْ كَانَ مِنْ حَبِّ الْكُزْبِرَةِ فَلَقَهُ أَرْبَاعًا، لِأَنَّ أَنْصَافَ حَبِّ الْكُزْبِرَةِ تَنْبُتُ.

فَالنَّمْلُ — مِنْ هَذَا الْوَجْهِ — فِي غَايَةِ الْحَزْمِ، فَسُحَّانَ الْمُلْهِمِ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ. وَلَيْسَ شَيْءٌ — مِنَ الْحَيَوَانَ — يَقْوَى عَلَى حَمْلِ مَا يَكُونُ ضِعْفَ وَزْنِهِ مَرَارًا: غَيْرُ النَّمْلَةِ. وَالنَّمْلُ يَشُمُّ مَا لَيْسَ لَهُ رِيحٌ، مِمَّا لَوْ وَضَعَهُ الْإِنْسَانُ عِنْدَ أَنْفِهِ، لَمَا وَجَدَ لَهُ رِيحًا.

وَمِنْ أَسْبَابِ هَلَاكِ النَّمْلَةِ، نَبَاتُ الْأَجْنِحَةِ لَهَا. فَإِذَا صَارَ النَّمْلُ كَذَلِكَ، صَادَتْهُ الْعَصَافِيرُ، وَأَكَلَتْهُ.
وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ:

«وَإِذَا اسْتَوَتْ لِلنَّمْلِ أَجْنِحَةٌ حَتَّى يَطِيرَ، فَقَدْ دَنَا عَطْبُهُ»

وَلَمَّا انْتَهَى «أَبُو فَاضِلِّ» مِنْ قِرَاءَةِ هَذَا الْفَصْلِ الْمُعْجَبِ النَّفِيسِ، امْتَلَأَتْ نَفْسُ «فَاضِلِّ» فَرَحًا بِمَا أُدْرِكَ مِنْ حَقَائِقِ. وَكَانَ لِهَذَا الدَّرْسِ أْبْلَغُ الْأَثَرِ فِي نَفْسِهِ.

(١٢) فِي غُرْفَةِ الْمَائِدَةِ

وَنَعُودُ إِلَى صَاحِبَتِنَا «أُمَّ مَازِنَ» الَّتِي لَبِثَتْ فِي مَكَانِهَا مُخْتَبِئَةً لَا تُبَدِّي أَقْلَ حَرَكَ، لِنَرَى: مَاذَا فَعَلَتْ؟

لَقَدْ جَهَدَهَا مَا لَقِيَتْ مِنْ إِزْهَاقٍ وَإِعْنَاتٍ، فَاسْتَسَلَمَتْ لِلنَّوْمِ الْعَمِيقِ، وَظَلَّتْ تَحْلُمُ بِالْبَرَاغِيثِ الشَّهِيَّةِ مَرَّةً، وَبِقَطِيرَةِ الْبُرْفُوقِ مَرَّةً أُخْرَى.

مُخَاطَرَاتُ أُمِّ مَازِنَ

وَلَمَّا اسْتَيْقَظَتْ مِنْ سُبَاتِهَا، رَأَتْ أَهْلَ الْبَيْتِ قَدْ نَامُوا جَمِيعًا، وَسَادَ الصَّمْتُ
وَالسُّكُونُ، وَانْطَفَأَتِ الْأَنْوَاءُ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا بَصِيصٌ ضَيِّلٌ، كَانَ يُرْسِلُهُ الْقَمَرُ فِي
زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَا الْمَطْبِخِ.

فَنَشَجَعَتْ «أُمُّ مَازِنَ» وَخَرَجَتْ مِنْ مَحْبَبَتِهَا، بَاحِثَةً — فِي جَمِيعِ الْأَرْجَاءِ — عَنْ نَقْبٍ
تَنْفُذُ مِنْهُ إِلَى خَارِجِ الْبَيْتِ. وَمَا زَالَتْ تَسِيرُ، حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى حُجْرَةِ الْمَائِدَةِ، وَهِيَ حُجْرَةٌ
فَسِيحَةٌ مُنْسَقَةٌ أَجْمَلَ تَنْسِيقٍ. ثُمَّ وَقَفَتْ وَاجِمَةً قَلِقَةً، لِأَنَّهَا سَمِعَتْ جَمَجَمَةً بِالْقُرْبِ مِنْهَا.
وَوَظَلَّتْ تُنْصِتُ، لِتَنْتَبِّهَ مِمَّا سَمِعَتْهُ، فَطَرَقَ سَمْعَهَا صَوْتُ ضَيِّلٍ. فَهَمَسَتْ «أُمُّ مَازِنَ»
قَائِلَةً: «تَرَى: مِنَ الطَّارِقِ؟»

فَسَمِعَتْ الصَّوْتُ وَاجِصًا: تَكَ، تَكَ؛ ثُمَّ ارْتَفَعَ الصَّوْتُ صَائِحًا فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ: رن ...
رن ... رن ...! إِذِنَا بِأَنَّ السَّاعَةَ الثَّلَاثَةَ الْآنَ.

فَاشْتَدَّ رُعْبُ «أُمِّ مَازِنَ»، وَهَرَبَتْ مُسْرِعَةً، وَهِيَ لَا تَعْرِفُ: إِلَى أَيْنَ تَقْصِدُ؟ وَلَا تَهْتَدِي
إِلَى مَخْرَجِ لَهَا مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ الْمُوحِشِ الْمُخِيفِ: وَكَانَ الظُّلَامُ حَالِكًا، وَالسُّكُونُ يَسُودُ
أَهْلَ الْبَيْتِ.

وَأَنْسَلَتْ «أُمُّ مَازِنَ» الصَّغِيرَةَ مِنْ تَحْتِ الْبَابِ، بَاحِثَةً عَنْ مَنْفَذٍ تَخْرُجُ مِنْهُ، فَإِذَا بِهَا
قَدْ عَادَتْ مِنْ حَيْثُ أَتَتْ. وَرَجَعَتْ إِلَى الْمَطْبِخِ الَّذِي كَانَتْ بِهِ.

(١٣) فِي الْمَطْبِخِ

وَلَمْ يَكَدْ يَقْرُ قَرَارُهَا فِي الْمَطْبِخِ، حَتَّى أَبْصَرَتْ دَابَّةً تَقْرُصُ تَحْتِ خِوَانٍ، وَهِيَ جَادَةٌ فِي
عَمَلِهَا، فَقَالَتْ «أُمُّ مَازِنَ»: «مَا أَشْبَهَ هَذِهِ الدَّابَّةَ بِأُمِّ رَاشِدٍ وَأُمِّ أَدْرَاصٍ! وَإِنْ كَانَتْ أَضْحَمَ
مِنْهُمَا. عَلَى أَنَّ أَنْفَهَا الْمُحَدَّدَ يَمَاتِلُ أَنْفَيْهِمَا، وَلَا يَفْتَرِقُ عَنْهُمَا فِي شَيْءٍ. وَلَسْتُ أَشْكُ فِي أَنَّ
هَذِهِ الدَّابَّةَ لَيْسَتْ إِلَّا فَارَةً، فَلَا أَضِيعَنَّ الْفُرْصَةَ. وَلَا بُدَّ مِنْ سُؤْلِهَا، لَعَلَّهَا تُرْشِدُنِي إِلَى
وَسِيلَةٍ لِلْخُرُوجِ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ.

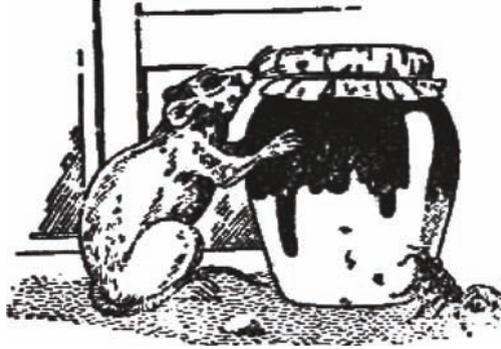
ثُمَّ أَسْرَعَتْ «أُمُّ مَازِنَ» إِلَى الدَّابَّةِ السَّمْرَاءِ. وَلَكِنَّهَا رَأَتْ عَيْنَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ حَضْرَاوَيْنِ
تَقْدَحَانِ نَارًا، فَلَمْ تَدْرِ: أَيَّ عَيْنَيْنِ هَاتَانِ؟

وَأَرْهَفَتْ سَمْعَهَا، فَلَمْ تَسْمَعْ إِلَّا صَوْتَ الْفَأْرَةِ الصَّغِيرَةِ، وَهِيَ تَقْرِضُ بِأَسْنَانِهَا. فَاسْتَأْنَفَتْ «أُمُّ مَازِنَ» سَيْرَهَا، وَهِيَ تَقُولُ فِي نَفْسِهَا: «لَقَدْ كُنْتُ وَاهِمَةً — بِلَا رَيْبٍ — فِيمَا حَسِبْتُهُ فَقَدْ حُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّنِي أَرَى عَيْنَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ تَقْدَحَانِ نَارًا، فَلَمَّا أَنْعَمْتُ النَّظَرَ، لَمْ أَغْزُرْ لَهُمَا عَلَى أَثَرٍ. وَلَعَلَّ سَبَبَ هَذَا الْوَهْمِ عَائِدٌ إِلَى ضَعْفِ أَعْصَابِي، الَّتِي أَضْنَاهَا مَا بَدَّلْتُهُ مِنَ الْجُهْدِ، وَكَابَدْتُهُ مِنَ الْعَنَاءِ، فِي الْيَوْمِ السَّابِقِ.»

ثُمَّ تَقَدَّمَتْ إِلَى الْفَأْرَةِ، قَائِلَةً: «سُعِدَ لِيكَ، يَا سَيِّدَتِي الْفَأْرَةُ!»
فَقَالَتْ لَهَا الْفَأْرَةُ مُسْتَعْجِبَةً: «سُعِدَتْ وَسَلِمْتِ، يَا عَزِيزَتِي ... آه ... إِنَّكَ نَمَلَةٌ صَغِيرَةٌ ... فَأَيُّ حَادِثٍ أَتَى بِكَ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ، الْإِهْلِ بِسَاكِنِيهِ؟ لَقَدْ غَرَّرْتَ بِنَفْسِكَ (عَرَضْتِهَا لِلْهَلَاكِ) فَإِنَّكَ مُسْتَهْدِفَةٌ لِلْأَخْطَارِ، إِذَا أَصْرَرْتَ عَلَى الْبَقَاءِ فِي هَذِهِ الدَّارِ وَمَا أَيْسَرَ عَلَى أَيِّ كَانَ أَنْ يَسْحَقَكَ بِقَدَمِهِ، عَنْ قَصْدٍ، أَوْ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ. فَارْجِعِي إِلَى وَاوَدِيكَ، إِنْ أَرَدْتِ السَّلَامَةَ. فَمَا أَظُنُّكَ قَدِمْتِ إِلَى هُنَا — أَيَّتُهَا الشَّرْهُهُ الصَّغِيرَةُ — إِلَّا رَغْبَةً فِي أَنْ تَأْكُلِي مِنَ السُّكَّرِ، وَالْوَانَ الْحَلْوَى، وَالْفَطَائِرِ اللَّذِيذَةِ ... إِنَّي جُدُّ عَارِفَةٍ بِمَا تُؤْثِرِيهِ مِنْ لَذَائِدِ الْأَطْعِمَةِ!»

فَقَالَتْ «أُمُّ مَازِنَ»: «كَلَّا، يَا سَيِّدَتِي الْفَأْرَةُ، مَا جِئْتُ هُنَا مُخْتَارَةً، بَلْ سَاقَتْنِي الْمَقَادِيرُ مُرْغَمَةً إِلَى هَذَا السَّجَنِ. وَقَدْ بَدَّلْتُ جُهْدِي، مُتَلَمِّسَةً مَنْفَذًا لِلْخُرُوجِ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ، فَلَمْ أُوفِّقْ فِي سَعْيِي إِلَى الْآنِ. وَلَكِنْ خَرَيْتَنِي — مُتَفَضِّلَةً — بِكُنْيَتِكَ، لِأَكْرَمِكَ بِهَا إِذَا نَادَيْتِكَ.»

فَقَالَتْ لَهَا الْفَأْرَةُ: «كُنْيَتِي — أَيَّتُهَا الْعَزِيزَةُ — هِيَ أُمُّ دَرِصٍ.»
وَلَمْ تَكُ «أُمُّ دَرِصٍ» تَتِمُّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ، حَتَّى سَمِعَتْ حَرَكَةً تَنْبَعُثُ مِنْ رُكْنٍ مُظْلِمٍ. فَرَفَعَتْ «أُمُّ دَرِصٍ» أَطْرَافَ أَنْفِهَا، وَأُدُنِّيَهَا، مُرْتَاعَةً؛ ثُمَّ سَرَّيَ عَنْهَا حِينَ تَلَفَّتَتْ فَلَمْ تَجِدْ شَيْئًا فِي الْحَجْرَةِ فَقَالَتْ سَاخِرَةً: «مَا أَشَدَّ عِبَائِي وَجُبْنِي! فَإِنِّي دَائِمَةٌ الْخَوْفِ مِنَ الْقِطِّ، لِأَنَّ أُمَّي طَالَمَا حَدَرَّتْنَا مِنْهُ، وَأَوْهَمْتْنَا أَنْ خَطَرُهُ لَا يُدْفَعُ، وَأَنَّ بَأْسَهُ مَرْهُوبٌ.»



وَقَدْ طَالَمَا حَدَّثْتُنَا أَحَادِيثَ مُفْرَعَةً عَنِ الْقَطِطِ، وَمَصَايِدِ الْفَأْرِ. وَقَدْ حَظَرْتَ عَلَيْنَا
الدُّخُولَ فِي هَذَا الْمَطْبِخِ الْحَافِلِ بِأَشْهَى الْأَطْعِمَةِ ...

وَلَكِنِّي لَنْ أَعْبَأُ بِنَصِيحَتِهَا — فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ — فَقَدْ أَيْقَنْتُ أَنَّهَا تُغَالِي فِي الْخَوْفِ
وَالْفَرَعِ، مِمَّا لَا يُخِيفُ وَلَا يُفْزِعُ ...

أَلَا تَرَيْنَ هَذَا الْبَابَ أَيُّهَا النَّمْلَةُ الصَّغِيرَةُ؟ إِنَّ خَلْفَهُ مِنْ نَفَائِسِ الْأَطْعِمَةِ، وَلَذَائِدِ
الْمَأْكَلِ الْمُرْتَقِيَاتِ، مَا يُنْسِي الْجَبَانَ جُبْنَهُ، وَيَجْعَلُهُ شُجَاعًا جَرِيئًا يَسْتَهِينُ بِالْأَخْطَارِ، وَلَا
يُبَالِي بِالْعَوَاقِبِ ...

إِنَّهُ فِيهِ كَثِيرًا مِنْ أَلْوَانِ الْخُبْزِ، وَالْأُرْزِ، وَالْجُبْنِ اللَّذِيذِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَصْنَافِ
الطَّعَامِ ...

أَلَا تَشْمِئِينَ هَذِهِ الرَّائِحَةَ الطَّيِّبَةَ؟ لَقَدْ طَالَمَا نَعِمْتُ بِإِفْتِحَامِ هَذَا الْبَابِ، وَأَكَلْتُ مَا
شِئْتُ مِنْ هَذِهِ اللَّذَائِدِ ... ثُمَّ عُدْتُ إِلَى أَهْلِي رَاضِيَةً مَسْرُورَةً ... فَإِنَّ أُسْرَتِي تَقْطُنُ مُسْتَوْدَعَ
الْقَمْحِ الْقَرِيبِ مِنْ هَذِهِ الْحُجْرَةِ حَيْثُ تُخْفِي زَادَنَا مِنَ الْجَوْزِ، وَ ...

وَهُنَا وَقَفْتُ «أُمُّ رِصْ» عَنِ الْكَلَامِ، فَقَدْ سَمِعَتِ الْحَرَكََةَ تَنَبَّعْتُ مِنَ الرُّكْنِ الْمُظْلَمِ،
مَرَّةً أُخْرَى. وَالتَّفَتَّتْ «أُمُّ مَازِنِ» فَرَأَتْ الْعَيْنَيْنِ الْبَرَّاقَتَيْنِ الْكَبِيرَتَيْنِ تَقْدَحَانِ بِالشَّرْرِ.

وَكَانَتِ الْقِطَّةُ — فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ — قَرِيبَةً مِنْهَا، فَارْتَجَفَتْ «أُمُّ مَازِنِ». وَلَمْ تَكُنْ قَدْ
رَأَتْ الْقِطَّ قَبْلَ هَذِهِ الْمَرَّةِ، وَلَمْ تَسْتَبِنِ — مِنْ خِلَالِ الظَّلَامِ — إِلَّا عَيْنَيْهِ، فَقَالَتْ مَدْعُورَةً:

«الزَّيْمِي الصَّمْتِ، يَا «أُمِّ دِرْصِ». فَإِنِّي أَنْوَجَسُ شَرًّا، وَقَدْ خِيلَ إِلَيَّ أَنِّي أَرَى شَيْئًا مُخْتَبِئًا فِي بَعْضِ الزَّوَايَا.»

(١٤) غُرُورُ الْفَارَةِ

فَقَالَتْ «أُمِّ دِرْصِ» هَازِيَةً: «ها! ها! ها! يا لك من رَعِيدَةٍ خَائِرَةِ الْعَزْمِ! عَلَى أَنْ مَجَالَ الْعُذْرِ أَمَامِكَ فَسِيحٌ، لِأَنَّكَ حَشْرَةٌ ضَعِيفَةٌ الْحَوْلِ وَالطَّوْلِ ... أَمَا أَنَا فَلَسْتُ جَدِيرَةً أَنْ أَخْشَى كَائِنًا كَانَ ... إِنِّي لَا أَبَالِي بِالنَّاسِ، وَلَا بِمَصَايِدِ الْفَارِ، وَلَا بِالْقَطَاطِ، لِأَنَّي عَاقِلَةٌ رَشِيدَةٌ، وَإِنْ كَانَتْ أُمِّي تَأْتِي إِلَّا أَنْ تُعَامِلَنِي كَمَا تُعَامِلُ طِفْلَةً صَغِيرَةً. وَلَهَا الْعُذْرُ فَإِنَّ حُبَّ الْأُمّهَاتِ كَثِيرًا مَا يَدْفَعُهُنَّ إِلَى تَخْوِيفِ بَنَاتِهِنَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ... إِنِّي جَرِيئَةُ الْقَلْبِ، يَا «أُمِّ مَازِنَ»، وَقَدْ كُنْتُ أَقْرُضُ الْأُرْزَ أَمْسَ — فِي هَذَا الْمَكَانِ — فِي وَضْحِ النَّهَارِ، أَمَامَ رَبَّةِ الدَّارِ، وَعَلَى مَرَأَى مِنْهَا ... وَقَدْ شَعَرْتُ — أَوَّلَ مَرَّةٍ — بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ، ثُمَّ عَاوَدْتَنِي الشَّجَاعَةُ ... وَلَعَلَّكَ لَا تَعْرِفِينَ: مَاذَا فَعَلْتُ؟»

فَقَالَتْ لَهَا «أُمِّ مَازِنَ»: «كَلَا، لَا أَعْرِفُ شَيْئًا!»

فَقَالَتْ «أُمِّ دِرْصِ»: «إِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَفْتَحُ هَذِهِ الْغِرَارَةَ (الرَّكِيْبَةَ) الَّتِي أَمَامَنَا، حَتَّى تَفْرُزَ فِي وَجْهِهَا. فَاشْتَدَّ خَوْفُهَا وَلَاذَتْ بِالْفِرَارِ، وَصَاحَتْ تَطْلُبُ النَّجْدَةَ. وَسَأَلَجَا إِلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ مَتَى رَأَيْتُ قِطًّا.»

(١٥) نَشِيدُ الْفَارَةِ

وَمَا زَالَتْ «أُمِّ دِرْصِ» سَابِحَةً فِي أَحْلَامِهَا، مُتَظَاهِرَةً بِالْجُرْأَةِ، مُسْتَهْيِنَةً بِالْأَخْطَارِ، غَيْرَ مُقَدَّرَةِ لِلْعَوَاقِبِ حِسَابًا. ثُمَّ حَتَمَتْ غُرُورَهَا، مُتَعَنِّيَةً بِالْأَنْشُودَةِ التَّالِيَةِ:

حَدَّثْتُ أُمِّي، وَمَا أَعُدُّ	جَبَّ مَا قَالَتْهُ أُمِّي!
«حَدَّثْتُنَا بِحَدِيثٍ	كَانَ وَهْمًا: أَيُّ وَهْمٍ!
حَدَّثْتُنَا أَنَّ بَأْسَ الْ-	قَطُّ: مَرْهُوبٌ، مُخِيفٌ
وَهُوَ — فِي رَأْيِي — جَبَانٌ	خَائِرُ الْعَزْمِ، ضَعِيفٌ

مُخَاطَرَاتُ أُمِّ مَازِنَ

إِنْ رَأَى - مِثْلِي - سَ - بَبَاقًا، تَوَانَى عَنِ لِحَاقِهِ
 أَيْنَ بَأْسُ الْقِطِّ مِنْ بَأْسِي؟ وَسَبِقِي مِنْ سِبَاقِهِ؟!
 أَبْلِغُوا الْقِطَّةَ عَنِّي: «أَنْنِي أَشْجَعُ مِنْهَا
 لَسْتُ أَخْشَاهَا، وَلَا أَفْ - زَرَعُ إِنْ حُدِّثْتُ عَنْهَا»
 لَيْتَهَا تَبْدُو أَمَامِي لَيْتَرَى عَزْمِي، وَبَأْسِي
 عَلَيَّيَ الْقِيَّ عَلَيَّهَا - إِنْ أَتَتْ - أَبْلَغُ دَرَسِ
 عَلَّهَا تُؤْمِنُ أَنَّ الْ - فَأَرَا لَا تَرْضَى الْفِرَارَا
 وَتَرَى أَنِّي عَنِيدٌ - فِي صِرَاعِي - لَا أَبَارَى
 وَتَرَى مِنَّا - إِذَا تُرُّ - نَا - أَشَدَّاءَ كِرَامَا
 لَا يُبَالُونَ - إِذَا مَا - غَضِبُوا - الْمَوْتَ الزُّوَامَا»

(١٦) نَشِيدُ الْقِطِّ

وَمَا كَادَتْ «أُمُّ دِرْصٍ» تُتِمُّ آخِرَ كَلِمَةٍ فِي هَذَا النَّشِيدِ، حَتَّى امْتَلَأَ قَلْبُهَا دُغْرًا. فَوَقَفَتْ
 الْمُسْكِينَةَ عَنِ الْكَلَامِ، وَوَقَفَ شَعْرُهَا مِنْ فَرْطِ الرَّعْبِ، وَجَحَظَتْ عَيْنَاهَا، وَصَاحَتْ، وَهِيَ
 تَرْتَجِفُ: «رَبَّاهُ! مَاذَا أَرَى؟

أَدْرِكِينِي يَا أُمَّاهُ! إِنَّهُ الْقِطُّ. فَمَا حِيلَتِي فِي دَفْعِهِ؟»
 وَأَقْبَلَ عَلَيْهَا الْقِطُّ يُطَارِدُهَا، وَيُنْشِدُ تَائِبًا مَزْهُوًّا:

أَيُّهَا الْمَعْرُورُ: أَهْلًا بِكَ إِذْ جِئْتَ وَسَهْلًا
 قَدْ تَمَنَّيْتُ لِقَائِي ضَلَّةً مِنْكَ، وَجَهْلًا
 أَنْتَ لِي أَفْخَرُ زَادٍ أَنْتَ لِي أَشْهَى طَعَامُ
 فَتَاهَبْ لِلِقَائِي وَاعْنَمِ الْمَوْتَ الزُّوَامُ.

وَوَظَلَّتْ «أُمُّ دِرْصٍ» تَجْرِي فِي أَرْجَاءِ الْمَطْبَخِ، عَلَى غَيْرِ هُدًى، وَالْقِطُّ يُطَارِدُهَا وَيَسُدُّ
 عَلَيْهَا مَنَافِذَ الْهَرَبِ؛ وَهِيَ تَعُوْثُ، طَالِبَةُ النَّجْدَةِ، فَلَا يُعِيْثُهَا أَحَدٌ.

مُخَاطَرَاتُ أُمِّ مَازِنِ

وَكَانَتْ «أُمُّ دِرْصِ» خَفِيفَةَ الْحَرَكَةِ، سَرِيعَةَ الْقَفْزِ، فَاسْرَعَتْ إِلَى جُحْرِهَا، حَتَّى إِذَا دَانَتْهُ، وَلَمْ يَبْقَ عَلَى بُلُوغِهِ إِلَّا قَفْزَتَانِ، أَدْرَكَ «أَبُو خَدَاشِ» غَرَضَهَا، فَوَنَبَ عَلَيْهَا وَتَبَّهَ وَاحِدَةً، فَإِذَا هِيَ بَيْنَ مَخَالِبِهِ.

وَهَكَذَا حَالَ دُونَ مَا تُرِيدُ، وَبَدَّلَ أَمَلَهَا يَأْسًا، وَأَصْبَحَتْ بَيْنَ بَرَاثِنِ الْمَوْتِ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ أَقْرَبَ مَا تَكُونُ إِلَى النِّجَاةِ؛ فَلَمْ تَرَ بُدًّا مِنْ مُعَاوَدَةِ النُّضَالِ.

(١٧) عَاقِبَةُ الْغُرُورِ



فَانْسَلَّتْ مِنْ بَيْنِ أَرْجُلِ عَدُوِّهَا اللَّدُودِ، وَأَسْرَعَتْ تَجْرِي بِكُلِّ سُرْعَتِهَا، حَتَّى وَجَدَتْ مِكَنَسَةً فِي زَاوِيَةِ الْمَطْبَخِ، فَاخْتَبَأَتْ خَلْفَهَا، وَهِيَ تَعْلُلُ نَفْسَهَا بِكَاذِبَاتِ الْأَمَانِيِّ، وَتَظُنُّ أَنَّ «أَبَا خَدَاشِ» لَنْ يَرَاهَا. وَتَقُولُ لِنَفْسِهَا نَادِمَةً مَحْزُونَةً: «لَيْتَنِي أَصْغَيْتُ إِلَى نُصْحِكَ يَا أُمَّاهُ! إِذَنْ لَنَجَوْتُ مِنَ الْخَطَرِ الدَّاهِمِ، وَلَكِنَّ غُرُورِي أَوْرَدَنِي مَوَارِدَ الْهَلَاكِ ... وَلَيْتَنُ نَجَوْتُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ، لَمْ أُخَالَفْ لِكَ قَوْلًا بَعْدَ الْيَوْمِ!»

وَلَكِنَّ أَمَالَ «أُمِّ دِرْصِ» تَبَدَّدَتْ، وَذَهَبَتْ أَدْرَاجَ الرِّيَّاحِ، فَقَدَّ رِيْضَ «أَبُو خَدَاشِ» أَمَامَ الْمِكَنَسَةِ، وَظَلَّ يَتَرَقَّبُ فَرِيْسَتَهُ، بِفَارِغِ الصَّبْرِ، وَهُوَ يَتَحَفَّرُ لِلْفَتْكِ بِهَا، وَالانْتِقَاضِ عَلَيْهَا، وَقَدْ سَالَ لِعَابُهُ شَوْقًا إِلَى اِزْدِرَادِهَا. وَظَلَّ يَمُرُّ لِسَانَهُ عَلَى شَفَتَيْهِ مَرَارًا، وَهُوَ فَرِحَانُ بِهَذَا الْفَطُورِ الشَّهِيِّ الْوَشِيكِ!



وَمَا كَادَتْ «أُمُّ دِرْصٍ» تُطَلُّ بِرَأْسِهَا الصَّغِيرَ، حَتَّى انْقَضَ عَلَيْهَا «أَبُو خَدَاشٍ»، وَأَمْسَكَ بِهَا بَيْنَ مِخْلَبَيْهِ، فَقَالَتْ لَهُ ضَارِعَةٌ: «اصْفَحْ عَنِّي — فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ — يَا أَبَا خَدَاشٍ! وَإِنِّي مُعَاهِدَتُكَ عَلَى تَرْكِ الدَّارِ ... اغْفِرْ لِي — بِرَبِّكَ — هَذِهِ الزَّلَّةُ؛ فَلَنْ أَعُودَ إِلَى اقْتِرَافِهَا بَعْدَ الْيَوْمِ.»

وَلَكِنَّ «أَبَا خَدَاشٍ» لَمْ يُصْغِحْ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا تَقُولُ، وَأَمْسَكَ بِهَا بَيْنَ بَرَانِيهِ.
وَلَمْ تُطِقْ «أُمُّ مَازِنِ» أَنْ تَرَى مَصْرَعَ صَدِيقَتِهَا التَّاعِسَةِ الْمُسْكِينَةِ: «أُمُّ دِرْصٍ»،
الَّتِي عُرِيبَتْ عَلَى غُرُورِهَا وَبَلَاهَتِهَا أَشْنَعَ عِقَابٍ، فَاخْتَبَأَتْ «أُمُّ مَازِنِ» حَتَّى غَابَ «أَبُو خَدَاشٍ»، وَمَعَهُ فَرِيستُهُ، الَّتِي خَالَفتْ نُصْحَ أُمِّهَا فَلَقِيتْ حَتْفَهَا جَزَاءً وَفَاقًا!

(١٨) بَيْنَ «فَاضِلٍ» وَ«كُوْتَرٍ»

وَلَمَّا أَصْبَحَتْ «أُمُّ مَازِنِ»، وَنَفَذَ — إِلَى الْمَطْبَخِ — أَوَّلُ شُعَاعٍ مِنْ أَشْعَةِ الشَّمْسِ الْوُضَاءَةِ،
أَقْبَلَتْ «أُمُّ مَازِنِ» عَلَى الْمَائِدَةِ، تَلْتَهُمْ سُكَّرًا مَسْحُوقًا وَظَلَّتْ تَأْكُلُهُ فِي شَرِّهِ عَجِيبٍ، شَأْنُ
بَنَاتِ جِنْسِهَا جَمِيعًا.

وَإِنَّمَا لَتَلْتَهُمُ السُّكَّرَ الْتِهَامًا، إِذْ سَمِعَتْ صَوْتَ خُطَوَاتِ ثَقِيلَةٍ، تَدْبُّ فِي الْمَمْشَى، وَرَأَتْ
«كُوْتَرٍ» قَادِمَةً عَلَى الْمَطْبَخِ.

فَقَالَتْ «أُمُّ مَازِنِ» فِي نَفْسِهَا: «لَقَدْ حَانَ وَقْتُ الْهَرَبِ، حَتَّى لَا تَرَانِي هَذِهِ الْفِتَاءُ،
فَتُهْلِكُنِي.»

مُخَاطَرَاتُ أُمِّ مَازِنَ

وَرَأَتْ «أُمَّ مَازِنَ» أَمَامَهَا ذُبَابَةً تَطِيرُ، صَوَّبَ نَافِذَةً مَفْتُوحَةً، ثُمَّ تَخَرَّجَ مِنْهَا. فَاعْتَرَمَتْ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ ذَلِكَ الْمَنْفَذِ، وَأَسْرَعَتْ تَعْدُو (تَجْرِي) إِلَى النَّافِذَةِ الْمَفْتُوحَةِ، وَهِيَ حَرِيصَةٌ عَلَى أَنْ تَسْتَخْفِيَ عَنْ عَيْنَيْ «كُوْتُرٍ» الَّتِي كَانَتْ مَشْغُولَةً بِإِعْدَادِ الْفُطُورِ ... وَمَا زَالَتْ «أُمَّ مَازِنَ» تَجِدُّ فِي سَيْرِهَا — بِعِزْمِ نَمْلَةٍ — حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى النَّافِذَةِ.

وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَبْلُغُ حَافَتَهَا، حَتَّى هَالَهَا مَا رَأَتْ، فَقَدْ أَبْصَرَتْ هَاوِيَةً بَعِيدَةَ الْعُورِ (شَدِيدَةَ الْعُمُقِ)، بَيْنَ النَّافِذَةِ وَالْأَرْضِ.

فَحَارَتْ فِي أَمْرِهَا، وَلَمْ تَدْرَ: كَيْفَ تَصْنَعُ؟

وَتَرَاجَعَتْ — مِنْ قُورِهَا — خَائِفَةً مَدْعُورَةً، حَتَّى لَا تَتَرَدَّى (لَا تَسْقُطُ) فِي تِلْكَ الْهَآوِيَةِ السَّحِيقَةِ.

وَإِنِّهَا لَتَهْمُ بِالْعُودَةِ — مِنْ حَيْثُ أَتَتْ — إِذْ طَرَقَ سَمْعَهَا صَوْتُ «فَاضِلٍ» وَهُوَ يُنَادِي أُخْتَهُ «كُوْتُرَ»: «هَلْ أَعْدَدْتِ فُطُورِي، أَيُّهَا الشَّقِيقَةُ الْعَزِيزَةُ؟»

فَقَالَتْ لَهُ «كُوْتُرُ» بِاسْمَةٍ: «لَقَدْ أَوْشَكْتُ أَنْ أَنْتَهِيَ مِنْهُ.»

فَصَاحَ «فَاضِلٌ» مَسْرُورًا: «انظري إلى هذه النملة الصغيرة، التي تسير حائرة على حافة النافذة، لقد بحثت عنها أمس، فلم أفر بطائل من بحثي، وما قد عثرت عليها الآن!»

فَقَالَتْ لَهُ «كُوْتُرُ»: «دَعَهَا — يَا عَزِيزِي — أَمِنَةً وَادِعَةً، وَلَا تَزْعَجْهَا.»

فَقَالَ لَهَا «فَاضِلٌ»: «كَلَّا، لَنْ أُصِيبَهَا بِسُوءٍ. وَلَكِنِّي حَرِيصٌ عَلَى دَرْسِ دَقَائِقِ تَرْكِيْبِهَا الْعَجِيبِ.»

(١٩) فِي الْهَوَاءِ الطَّلِقِ

وَلَكِنَّ «أُمَّ مَازِنَ» كَانَتْ تُؤَثِّرُ (تُفَضِّلُ) أَنْ تَمُوتَ عَلَى أَنْ يَقْبِضَ عَلَيْهَا أَحَدٌ. فَاسْرَعَتْ إِلَى حَافَةِ النَّافِذَةِ. وَاعْتَرَمَتْ أَنْ تَهْبِطَ إِلَى الْأَرْضِ، كَبِدَهَا ذَلِكَ مَا كَبِدَهَا مِنْ عَنَاءٍ وَمُخَاطَرَةٍ! فَتَقَدَّمَتْ إِلَى الْحَائِطِ فِي صَبْرٍ وَثَبَاتٍ، وَأَنْشَبَتْ أَرْجُلَهَا مُتَشَبِّهَةً بِهِ. وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَخْطُو خُطُواتٍ ثَلَاثًا، حَتَّى انْقَلَبَ رَأْسُهَا إِلَى أَسْفَلِ، وَاخْتَلَّتْ تَوَازُنُهَا، فَهَوَتْ مِنْ ارْتِفَاعِ طَائِقِ

مُخَاطَرَاتُ أُمِّ مَازِنَ

كَامِلٍ. وَقَدْ كَانَ هَذَا الِازْتِفَاعُ كَافِيًا لِقَتْلِ مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنَ النَّمْلَةِ؛ وَلَكِنَّهَا نَجَتْ مِنَ الْخَطْرِ
— لِحُسْنِ حَظِّهَا — فَقَدْ اعْتَرَضَتْهَا وَرَقَةٌ كَرِيمٌ، فَحَمَّتْهَا مِنْ أَنْ تُصَابَ بِسُوءٍ.
وَانْطَلَقَتْ «أُمُّ مَازِنَ» تَجِدُّ فِي طَرِيقِهَا، إِلَى بَيْتِهَا، وَقَدْ أَصْبَحَتْ آمِنَةً فِي الْهَوَاءِ الطَّلَقِ
... وَمَا زَالَتْ جَادَّةً فِي السَّيْرِ حَتَّى اقْتَرَبَتْ مِنَ الْبَيْتِ.

(٢٠) فِي وَادِي النَّمْلِ

وَلَمْ تَكَدْ تَدُنُّو مِنْ وَادِي النَّمْلِ، حَتَّى رَأَتْ مَا أَدْهَشَهَا وَهَالَهَا، وَحَزَنَهَا وَأَقْلَقَ بِأَلْهَا.
تُرَى: مَاذَا حَدَثَ؟ وَأَيُّ حَظِّبٍ أَلَمَّ بِعَشِيرَتِهَا، وَحَلَّ بِقَوْمِهَا؟
لَقَدْ أَبْصَرْتُ طَوَائِفَ النَّمْلِ خَارِجَةً أُسْرَابًا أُسْرَابًا، ضَارِبَةً فِي فِجَاجِ الْأَرْضِ (طُرُقِهَا)،
عَلَى غَيْرِ هُدًى.

فَقَالَتْ «أُمُّ مَازِنَ» تُحَدِّثُ نَفْسَهَا مَدْهُوشَةً: «هَذَا أَعْجَبُ مَا رَأَيْتُ فِي حَيَاتِي! وَمَا
أَدْرِي: لِمَ حَرَجْتَ عَشِيرَتِي كُلَّهَا مِنْ دُورِهَا! أَتُرَاهُنَّ قَدْ حَرَجْنَ لِيُقَابِلُنِي؟ مَا أَظُنُّ ذَلِكَ!»
نُمُّ أَبْصَرْتُ «أُمُّ مَازِنَ» صَاحِبَتَهَا «بِنْتُ الشَّيْصَبَانِ» قَادِمَةً، وَقَدْ بَدَتْ عَلَيْهَا أَمَارَاتُ
الِازْتِبَاكِ وَالْحَيْرَةِ وَكَأَنَّهَا هِيَ هَارِبَةٌ، وَقَدْ حَمَلَتْ طِفْلًا صَغِيرًا.

فَصَاحَتْ بِهَا «أُمُّ مَازِنَ» قَائِلَةً: «سُعِدَ يَوْمُكَ، يَا «بِنْتُ الشَّيْصَبَانِ» هَا أَنَا ذِي رَبِيبَتِكَ:
«أُمُّ مَازِنَ» أَلَا تَعْرِفِينِي؟ مَا بِالْكَ خَائِفَةٌ وَجَلَّةٌ؟»

فَقَالَتْ لَهَا «بِنْتُ الشَّيْصَبَانِ»: «أَهْ لَنَا، يَا حَبِيبَتِي! وَوَاهٍ مِنْ تِلْكَ النُّكْبَةِ الَّتِي أَلَمَّتْ
بِنَا، أَيَّتُهَا الْعَزِيزَةُ!»

فَصَاحَتْ «أُمُّ مَازِنَ» مُرْتَاعَةً: «أَيُّ نُّكْبَةٍ تَعْنِينَ؟»
فَأَجَابَتْهَا «بِنْتُ الشَّيْصَبَانِ»: «لَقَدْ هَاجَمَتْنَا جُيُوشٌ كَثِيفَةٌ مِنَ النَّمَالِ الشُّقْرِ الْخَبِيثَةِ،
وَسَنَّتْ عَلَيْنَا غَارَةً شَعْوَاءَ. وَلِعَلَّكَ تَعْرِفِينَ أَنَّ أَوْلِيكَ الشُّقْرَاوَاتِ طَالَمَا حَظَفْنَ بِنَاتِنَا،
وَفَجَعَنَنَا فِي حَبِيبَاتِنَا. وَلَقَدْ كَاتَرْنَا بَعْدِيهِنَّ، وَمَلَأْنَ السَّهْلَ، وَمَلَكَ عَلَيْنَا فِجَاجَ الْأَرْضِ
كُلِّهَا. أَهْ! أَلَا تَسْمَعِينَ؟ وَدَاعَا، يَا «أُمُّ مَازِنَ». فَإِنِّي هَارِبَةٌ، حَتَّى لَا أَقَعُ فَرِيسَةً لِأَوْلِيكَ
الْخَبِيثَاتِ.»



وَلَقَدْ صَدَقَتْ «بِنْتُ الشَّيْصَبَانِ» فِيمَا قَالَتْهُ، فَإِنَّ جُيُوشَ الشَّقْرَوَاتِ — مِنْ نِمَالِ الْأَعْدَاءِ — كَانَتْ تَتَقَدَّمُ إِلَى وَادِي النَّمْلِ، زَاحِفَةً تُحَاوِلُ أَنْ تَكْتَسِحَ الْوَادِيَّ. وَقَدْ رَتَّبَتْ خُطَّةَ الْهَجُومِ وَالْغَزْوِ، وَسَارَتْ مُتَقَدِّمَةً فِي صُفُوفٍ مُتْرَاصَةٍ. وَكَانَ الْقَادَةُ فِي مُقَدِّمَةِ الْجَيْشِ، مُسْتَبْسِلِينَ فِي الْحَرْبِ، وَقَدْ رَفَعُوا قُرُونَهُمْ مُهَيِّبِينَ (صَائِحِينَ) بِجُنُودِهِمْ: أَنْ تَقَدَّمُوا إِلَى الْأَمَامِ، إِلَى الْأَمَامِ دَائِمًا!

وَكَانَتْ الشَّقْرَوَاتُ الْكَبِيرَاتُ آيَةً مِنْ آيَاتِ الْقَسْوَةِ، فَلَمْ تَرْحَمْ صَغِيرًا وَلَمْ تُوقِّرْ كَبِيرًا. وَاضْطَرَبَتْ أَسْرَابُ النَّمَالِ السُّودِ الصَّغِيرَةِ، وَتَفَرَّقَ حُرَّاسُهَا أَشْتَاتًا، يُعَوِّثُونَ وَيَسْتَنْجِدُونَ. وَخَرَجَتْ جَمَاهِيرُ النَّمْلِ الْأَسْوَدِ، لِصَدِّ غَارَةِ الْأَعْدَاءِ، وَقَدْ أَلَيْنَ عَلَى أَنْفُسِهِنَّ أَنْ يَمْنَعَنَّ وَايَهُنَّ، وَيَحْمِينَ وَطَنَهُنَّ، وَيَدُدْنَ عَنْ ذَرَارِيهِنَّ (نَسْلِهِنَّ)، بِإِذْلَاتٍ أَنْوَاحَهُنَّ رَخِيصَةً فِي سَبِيلِ حِمَايَةِ الْأَهْلِ وَالْوَطَنِ!

وَأَنْدَفَعْنَ — فِي شَجَاعَةٍ وَإِقْدَامٍ لَا مَثِيلَ لَهُمَا — يُحَارِبْنَ الْعَدُوَّ، وَيُجْلِينَ الْمُنْغِيرَاتِ، وَقَدْ بَدَّلْنَ كُلَّ مَا وَسَعَتْهُ جُهُودُهُنَّ، وَأَبْلَيْنَ فِي الْحَرْبِ أَحْسَنَ بِلَاءٍ.

وَلِكِنَّ الشُّقْرَاوَاتِ الْكَبِيرَاتِ ظِلَّلَنْ يَتَقَدَّمْنَ إِلَى الْأَمَامِ، مُسْتَهِينَاتٍ بِكُلِّ مَا يَتَعَرَّضُنَّ لَهُ مِنْ أَحْطَارٍ، وَقَدْ أَصْرَرْنَ عَلَى اقْتِحَامِ صُفُوفِ الْعَدُوِّ وَإِذْلَالِهِ، كَلَفَهُنَّ ذَلِكَ مَا كَلَفَهُنَّ، مِنْ جِهَادٍ وَفِدَاءٍ.

وَصَاحَ صَائِحُهُنَّ — مِنْ الْقَادَةِ — وَهَنَّ يَتَسَلَّقْنَ قِمَّةَ التَّلَّةِ، وَيَعْتَلِينَ زِرْوَةَ الرَّبْوَةِ: «نَظَّمْنَ صُفُوفَكُنَّ — يَا حَفْدَةَ «الشَّيْصَبَانِ» — وَاسْتَلَّهِنَّ مَضَاءَ عَزْمِ أُسْلَافِكُنَّ. وَلَا تَنْسِينَ نَصِيحَةَ جَدِّنَا الْأَكْبَرِ: «الشَّيْصَبَانِ» الْعَظِيمِ، فَقَدْ أَصْبَحَ النَّصْرُ مِنَّا قَرِيبًا، وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْكُنَّ إِلَّا حُطُوتٌ بِسِيرَةٍ تَقْهَرُنَ — فِي إِثْرِهَا — الْعَدُوُّ؛ وَتَنْتَصِرْنَ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ الْحَاسِمَةِ!»

فَسَارَتِ الشُّقْرَاوَاتُ، زَاحِفَاتٍ عَلَى أَعْدَائِهِنَّ، مُرَدِّدَاتٍ نَشِيدَ الْحَرْبِ الَّذِي حَفِظْتُهُ مِنْ أُسْلَافِهِنَّ، عَنْ جَدِّهِنَّ الْأَوَّلِ: «الشَّيْصَبَانِ» الْأَكْبَرِ.

(٢٢) نَشِيدُ الشَّيْصَبَانِ

وَكَانَتْ جَمَاعَاتُ النَّمْلِ الشُّقْرِ، جَادَّةً فِي طَرِيقِهَا إِلَى وَادِي الْأَعْدَاءِ، وَهَنَّ يَنْشُدْنَ النَّشِيدَ التَّلَائِيَّ مُتَحَمِّسَاتٍ:

يَا بَنَاتِ الشَّيْصَبَانِ:	قَدْ أَتَى يَوْمَ الطَّعَانِ
فَتَوَافِدْنَ أُلُوفًا	وَتَجَمَعْنَ صُفُوفًا
وَاعْتَلِينَ الْهَضْبَاتِ	وَاقْتَحِمْنَ الْعَقَبَاتِ
ثُمَّ فَرَّقْنَ الْأَعَادِي	بَدَدًا فِي كُلِّ وَادِي!
يَا بَنَاتِ الشَّيْصَبَانِ:	قَدْ أَتَى يَوْمَ الطَّعَانِ
فَلْيَكُنْ يَوْمَ فَخَارٍ	وَابْتِهَاجٍ وَأَنْتِصَارٍ
لَا تَوَانِيْنَ، فَإِنَّا	— إِنْ تَوَانَيْتُنَّ — ضِعْنَا
فَلْتُدْكُدِكُنَّ الْجِبَالَ	وَلْتُدَلِّلْنَ الْمُحَالَ!
يَا بَنَاتِ الشَّيْصَبَانِ:	قَدْ أَتَى يَوْمَ الطَّعَانِ
فَتَسَنَّمْنَ الْوَهَادَا	وَتَنَاسِيْنَ الرُّقَادَا
وَتَسَامِيْنَ لِمَجْدٍ	وَتَذَرَّعْنَ بِجِدِّ

وَتَدَافَعْنَ سُبُوحًا
قَدْ أَتَى يَوْمَ الطَّعَانِ
مَجْدُهُ لَيْسَ يَهَانَ:
فَلَنَمُوتَنَّ فِدَاءَهُ
ذَلَّ مَنْ يَخْشَى الْحِمَامَا!

وَتَقَحَّمْنَ السُّهُولَا
يَا بَنَاتَ الشَّيْصَبَانِ
جَدُّكُنَّ الشَّيْصَبَانُ
إِنَّا نَحْمِي لِوَاءَهُ
وَلَنَمُوتَنَّ كِرَامَا

(٢٣) انْتِصَارُ الشَّقْرَاوَاتِ

وَسُرْعَانَ مَا اقْتَحَمَتِ الشَّقْرَاوَاتُ وَايَدِي الْأَعْدَاءِ، بِاحْتِثَاتٍ عَنِ أَطْفَالِهِنَّ الصَّغَارِ، وَقَدْ تَمَّ لَهُنَّ الظَّفَرُ. وَعُدْنَ، وَفِي فَمِ كُلِّ شَقْرَاءٍ مِنْهُنَّ دُودَةٌ، أَوْ طِفْلٌ، مِنْ ذَرَارِيِّ النَّمَالِ السُّودَاءِ، وَهِيَ أَعَزُّ مَا لَدَيْهِنَّ فِي الْحَيَاةِ.

وَهَكَذَا انْتَهَتْ تِلْكَ الْحَرْبُ الطَّاحِنَةُ بِانْدِحَارِ السُّودَاوَاتِ، وَانْتِصَارِ الشَّقْرَاوَاتِ، وَامْتَلَأَتْ سَاحَةُ الْقِتَالِ بِالْقَتْلِ وَالْجَرْحِ، مِنَ السُّودَاوَاتِ، وَتَكَدَّسَتْ أَشْلَاوُهُنَّ أَكْدَاسًا. أَلَا قَبُحَتِ الْحَرْبُ! وَقُبِحَ كُلُّ مَنْ يَعْمَلُ عَلَى إِثَارَتِهَا وَإِلْهَابِ نَارِهَا!...

(٢٤) مَجْمَعُ النَّمْلِ الْأَسْوَدِ

وَعَادَتْ جُيُوشُ الشَّقْرَاوَاتِ فَرِحَاتٍ بِانْتِصَارِهِنَّ، وَقَدْ حَمَلْنَ أَسْلَابَ أَعْدَائِهِنَّ، وَرَجَعْنَ بِعَنَائِمِهِنَّ التَّمِينَةَ. وَلَوْ رَأَيْتُمُوهُنَّ — أَيُّهَا الْأَطْفَالُ الْأَعْرَاءُ — لَرَأَيْتُمْ آفَاقًا مِنَ الْقُشُورِ الْبَيْضَاءِ، سَائِرَةً خِلَالَ الْحَشَائِشِ الْخَضْرَاءِ.

وَمَا أَظُنُّكُمْ تَجْهَلُونَ تِلْكَ الْقُشُورَ الْبَيْضَ، فَهِيَ ذَرَارِيُّ النَّمَالِ السُّودِ الَّتِي حَمَلَتْهَا الشَّقْرَاوَاتُ إِلَى وَاوِيهِنَّ الْبَعِيدِ.

وَنَعُودُ إِلَى «أُمِّ مَازِنٍ» لِنَرَى مَا فَعَلَتْهُ فِي انْتِنَاءِ هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ الطَّاحِنَةِ.

وَالْحَقُّ أَقُولُ — أَيُّهَا الْقُرَاءُ الْأَعْرَاءُ — إِنَّ هَذِهِ النَّمْلَةَ الْبَاسِلَةَ قَدْ اسْتَبَسَلَتْ فِي الدُّفَاعِ، وَاسْتَمَاتَتْ فِي سَبِيلِ الدُّودِ عَنِ الْوَطَنِ وَالْعَشِيرَةِ، وَقَاتَلَتْ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ، حَتَّى خَرَّتْ صَرِيعةً فِي الْمِيدَانِ، وَرَقَدَتْ بَيْنَ الْأَشْلَاءِ، وَهِيَ إِلَى الْمَوْتِ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلَى الْحَيَاةِ.

وَبَعْدَ قَلِيلٍ جَاءَتْ السُّودَاوَاتُ بِاحْتِثَاتٍ عَنِ الْجَرَحَى، وَاسْتَيْقَظَتْ «أُمُّ مَازِنَ» مِنْ رَقَدَتِهَا، فَجَمَعَتْ تَقُولُ بِصَوْتٍ ضَعِيفٍ: «تُرَى: أَيْنَ أَنَا؟»

وَرَأَاهَا صَوَاحِبُهَا، وَهِيَ تُحَرِّكُ إِحْدَى أَرْجُلِهَا، فَتَقَدَّمَتْ إِحْدَاهُنَّ إِلَيْهَا، وَصَاحَتْ قَائِلَةً: «أه! ها هي «أُمُّ مَازِنَ»! يا عَزِيزَاتِي! فَهَلْمِي أَيُّهَا الرَّفِيقَةُ الْبَاسِلَةُ!»

فَنَهَضَتْ «أُمُّ مَازِنَ» مِنْ رَقَدَتِهَا. وَبَذَلَتْ جُهْدًا شَدِيدًا، حَتَّى اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَقِفَ عَلَى أَقْدَامِهَا، وَظَلَّتْ تُحَرِّكُ أَرْجُلَهَا لِتَتَفَقَّدَهَا. فَلَمَّا اطْمَأَنَّتْ بِوُجُودِهَا، حَمَدَتْ اللَّهَ عَلَى السَّلَامَةِ، وَقَالَتْ: «شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى أَنْبِي لَمْ أَصِبْ بِسُوءٍ، وَلَمْ تُكْسِرْ لِي قَدَمٌ وَاحِدَةً فِي هَذِهِ الْحَرْبِ الطَّاحِنَةِ.»

ثُمَّ سَارَتْ مُسْتَنِدَةً إِلَى إِحْدَى رَفِيقَاتِهَا، وَمَا زَالَتْ تَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى قَاعَةِ الْاجْتِمَاعِ، فَرَأَتْ جَمَهْرَةً مِنَ النِّمَالِ تَتَحَدَّثُ وَتُنَاقِشُ مُنَاقَشَاتٍ حَادَّةً.

وَسَمِعَتْ إِحْدَاهُنَّ تَقُولُ: «هَلْ وَضَعْتُنَّ حَارِسَاتٍ عِنْدَ السِّيَاحِ، قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ؟»

فَأَجَابَتْهَا نَمْلَةٌ أُخْرَى: «لَمْ يَفْتُنَّا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ — بِلَا رَيْبٍ — فَقَدْ وَقَفْنَا جَمَاعَةً مِنَ الْحَارِسَاتِ فِي الْجَبْهَةِ الْأُخْرَى، وَإِنِّي جِدُّ وَاثِقَةٌ مِنْ أَنَّ هَذِهِ الْمَأْسَاءَ الْمُفْجِعَةَ لَنْ تَتَكَرَّرَ بَعْدَ الْيَوْمِ.»

فَقَالَتْ نَمْلَةٌ ثَالِثَةٌ: «لَقَدْ جَاءَتْ «بِنْتُ الشَّيْصَبَانِ» سَعْدَ مَسَاوِكٍ، أَيُّهَا الْأَخْتُ الْعَزِيزَةُ.

حَبْرِينَا مَاذَا تَحْمِلِينَ؟ إِنِّي أَرَاكِ تَحْمِلِينَ طِفْلًا!

يَا لِلَّهِ! لَقَدْ حَسَبْنَاكِ فِي عِدَادِ الْهَلْكَى، أَيُّهَا الرَّفِيقَةُ الْكَرِيمَةُ!»

فَقَالَتْ «بِنْتُ الشَّيْصَبَانِ» بَعْدَ أَنْ وَضَعَتْ طِفْلَهَا أَمَامَهُنَّ: «أَسْعَدَ اللَّهُ مَسَاءَكُنَّ يَا عَزِيزَاتِي! أَلَا تَرَيْنَ أَنْبِي لَمْ أَضِعْ وَقْتِي عَبَثًا؟ فَقَدْ أَنْسَلْتُ فِي أَثْنَاءِ الْمَعْرَكَةِ، وَخَبَّأْتُهُنَّ فِي ذَلِكَ الثَّقَبِ الْأَمِينِ، الَّذِي فِي جِذْعِ شَجَرَةِ الْبُرْقُوقِ.»

فَقُلْنَ لَهَا: «أَيُّ شَيْءٍ خَبَّأْتَ فِي جِذْعِ الْبُرْقُوقَةِ، يَا بِنْتُ الشَّيْصَبَانِ؟»

فَقَالَتْ مَرْهُوَةٌ فَخُورَةٌ: «لَقَدْ خَبَّأْتُ الْأَطْفَالَ الْأَعْرَاءَ! فَقَدْ أَنْسَلْتُ إِلَى وَاوِدِينَا خَمْسَ مَرَّاتٍ، وَحَمَلْتُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ طِفْلًا، وَهَا هُوَ ذَا أَحَدِ الْأَطْفَالِ! فَتَعَالَيْنِ مَعِي، لِنُحْضِرَ الْبَاقِينَ.» فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُ التَّنَاءِ وَالْإِعْجَابِ بِهَا مِنْ كُلِّ صَوْبٍ، وَقُلْنَ لَهَا: «يَا لِكَ مِنْ مُرْضِعٍ

نَبِيلَةٍ، يَا بِنْتُ الشَّيْصَبَانِ! فَلكِ مِنَّا أَطْيَبُ الشُّكْرِ، وَأَجَلُّ الْاحْتِرَامِ.»

(٢٥) حُطْبَةٌ «أُمِّ مَشْغُولٍ»

وَأَرَادَتْ «أُمُّ مَازِنٍ» أَنْ تَتَعَرَّفَ عَدَدَ الْقَتْلِ، فَاقْتَرَحَتْ عَلَى صَدِيقَتِهَا «أُمِّ نَوْبَةَ» أَنْ تُنَادِيَ الْأَسْمَاءَ.. وَلَمْ تَكَدْ تَفْعَلْ، حَتَّى ظَهَرَ أَنَّ عَدَدَ الْقَتْلِ قَدْ فَاقَ كُلَّ حُسْبَانٍ.

وقالت «أُمُّ نَوْبَةَ»: «وَلَقَدْ هَلَكَ — فِي هَذِهِ الْمَوْقِعَةِ الْهَائِلَةِ — كَثِيرٌ مِنَ الْقَوَارِبِ مِنْهُمْ: الْعُجْرُوفُ، وَالذُّعْبُوبُ، وَالذُّعَامَةُ، وَالْجَفْلُ، وَالْجَنْلُ. وَهَلَكَتِ السُّمُسُمَةُ؛ وَهِيَ زَعِيمَةُ جَيْشِ الْأَعْدَاءِ، وَقَائِدَةُ جُمُوعِهِمْ. وَقَتِلَ جُمُهورٌ ضَخْمٌ مِنَ الدَّبِيِّ؛ وَهِيَ تِلْكَ النَّمَالُ الصَّغِيرَاتُ، الْعَزِيزَاتُ عَلَيْنَا، كَمَا هَلَكَتْ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّماسِمِ، وَهَمَّ إِخْوَتُنَا مِنَ النَّمَالِ الَّتِي تَعِيشُ فِي الْبَسَاتِينِ. وَلَمْ يَكُنْ لَهَا يَدٌ فِي هَذِهِ الْحَرْبِ الطَّاحِنَةِ، وَلَكِنَّهَا ذَهَبَتْ فَرِيسَةً بِلا تَمَنٍّ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ نَمْلَةً مُسْتَلْقِيَةً عَلَى ظَهْرِهَا، رَافِعَةً قَوَائِمَهَا إِلَى السَّمَاءِ، وَهِيَ تَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَنَارَ لَنَا مِنَ الشَّقَرَاوَاتِ الْجَائِرَاتِ، اللَّائِي بَعَيْنٍ، وَاعْتَدَيْنَ عَلَيْنَا أَشْنَعَ اعْتِدَاءٍ.

فَسَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُجِيبَ دُعَاءَهَا، وَيَنْتَقِمَ لَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.»
فَوَجَمَتِ النَّمَالُ السُّودَاءُ، وَحَزِنَتْ لِمَصَارِعِ أَخَوَاتِهَا.

وصاحت «أُمُّ مَازِنٍ» مُتَأَلِّمَةً: «لَقَدْ فَتَكَ بِنَا النَّمْلُ الْأَشْقَرُ فَتْكَاً ذَرِيعاً، وَفَجَعَنَا فِي أَعْرُ صَوَاحِبِنَا، وَأَبْرَ صَدِيقَاتِنَا، وَأَكْرَمِ أَهْلِينَا عَلَيْنَا. وَلَقَدْ أَثَارَهَا عَلَيْنَا غَارَةٌ شَعُوءًا، وَدَبَّحَ مِنَ السُّودَاوَاتِ عَدَدًا لَا يُحْصَى، وَلَمْ يَبْقَ فِي غُرْفِ الْمُرَبِّياتِ أَحَدٌ. فَلَنَشِيعَ قَتْلَانَا غَدًا — فِي احْتِفَالٍ مَهِيْبٍ — إِلَى مَقْبَرَتِنَا الَّتِي خَلْفَ السِّيَاحِ.»

وَلَمَّا أُنِّمَتْ «أُمُّ مَازِنٍ» كَلَامَهَا، سَادَ الصَّمْتُ وَالْحُزْنُ، سَاعَةً مِنَ الزَّمَانِ، ثُمَّ انْبَعَثَتْ أَصْوَاتٌ — مِنْ أَرْجَاءِ الْقَاعَةِ — تَقُولُ: «اصْغِينَ إِلَى خِطَابِ أُمِّ مَشْغُولٍ!»

فَتَلَقَّتِ النَّمَالُ إِلَى «أُمِّ مَشْغُولٍ»، وَهِيَ نَمْلَةٌ عَامِلَةٌ مُحْتَرَمَةٌ، وَقَدْ صَعِدَتْ عَلَى ظَهْرِ نَمْلَةٍ أُخْرَى لِتَسْمَعَ رَفِيقَاتِهَا صَوْتَهَا فِي وُضُوحٍ وَجَلَاءٍ.

وَأَرْهَفَتِ النَّمَالُ آذَانَهُنَّ لِسَمَاعِ مَا تَقُولُهُ «أُمُّ مَشْغُولٍ».

وَقَدْ أَنْشَأَتْ تَقُولُ: «أَبْنَائِي، وَبَنَاتِ أَخَوَاتِي، وَحَفَدَتِي الْأَعْرَاءُ: إِنَّ هَذَا الْيَوْمَ لَنْ يُمْحَى مِنْ ذَاكِرَتِنَا، مَا حَيِينَا؛ فَهُوَ يَوْمٌ حُزْنٍ وَحِدَادٍ، وَقَدْ تَبَدَّلَ فِيهِ هَنَاؤُنَا شَقَاءً، وَانْقَلَبَ فَرْحُنَا تَرْحًا.

مُخَاطَرَاتُ أُمِّ مَازِنَ

وَلَقَدْ أَقَمْنَا رَدْحًا مِنَ الزَّمَنِ، فِي هَذَا الْوَادِي الْخَصِيبِ، وَقَضَيْنَا فِيهِ عَهْدًا سَعِيدًا، مَرَّ بِنَا كَمَا تَمَرُّ أَشْهُى الْأَحْلَامِ. ثُمَّ دَأَلَتْ دَوْلَتُنَا، وَرَمَانَا الدَّهْرُ — فِي هَذَا الْيَوْمِ الْأَسْوَدِ — بِفَادِحِ الْخُطُوبِ وَالْمِحَنِ ... فَقَدْ رُزِقْنَا فِي بِنَاتِنَا الْعَزِيزَاتِ وَكُنَّ مَصْدَرَ سُرُورِنَا وَإِبْنَانِنَا، وَمُرَادَ آمَالِنَا وَأَمَانِينَا.

لَقَدْ قَضَيْنَا الصَّبَاحَ فِي مَرَحٍ وَسُرُورٍ، فِي هَذَا الْوَادِي الْجَمِيلِ، الْخَصِيبِ إِلَى الْقُلُوبِ، وَهَا نَحْنُ أَوْلَاءُ: نَقْضِي الْمَسَاءَ حَزِينَاتٍ، مُوجَعَاتٍ مُقَرَّحَاتِ الْعُيُونِ.

لَقَدْ أَغَارَتِ الشَّقَرَاوَاتُ عَلَى دِيَارِنَا، وَانْتَهَبْنَ مَا تَرَكْنَا، مِنْ بَيْطٍ وَأَطْفَالٍ أَعْرَاءٍ عَلَيْنَا، هُمْ مَنَاطُ آمَالِنَا وَمَعْقِدُ رَجَائِنَا، وَاتَّخَذْنَهُنَّ عَبِيدًا لِهِنَّ وَأَرْقَاءَ، لِيُؤَدِّيْنَ — فِي قَرْيَةِ الْأَعْدَاءِ — أَعْمَالَ الْخَدَمِ وَالْعَبِيدِ، وَلَيْسَ لَنَا مِنْ أَمَلٍ فِي عَوْدَةِ أَبْنَانِنَا بَعْدَ الْيَوْمِ!...»

فَبَكَتْ بَنَاتُ «الشَّيْصَبَانِ» جَمِيعًا، حِينَ سَمِعْنَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الدَّامِيَةَ ...

وَصَمَّتَتْ «أُمُّ مَشْغُولٍ» لَحْظَاتٍ يَسِيرَةً، ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ، قَائِلَةً: «لَيْسَتْ هَذِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ يَدْهَمُنَا فِيهَا أَوْلِيكَ الْأَعْدَاءُ. بَلْ هِيَ الْمَرَّةُ الثَّلَاثَةُ، فِيمَا أَعْلَمُ. فَقَدْ أَلْفَتِ الشَّقَرَاوَاتُ الْخَبِيثَاتُ أَنْ يُغْرْنَ عَلَى وَادِينَا وَيَنْتَهَبْنَ أَسْلَابِنَا؛ وَيُحَرِّبْنَ بِيُوتِنَا، وَيَسْتَعْبِدْنَ أَبْنَاءَنَا وَبَنَاتِنَا. فَمَا حِيلَتُنَا الْآنَ؟ لَيْسَ لَنَا مِنْ حِيلَةٍ إِلَّا أَنْ نُصَلِّحَ مَا خَرَّبَتْهُ الشَّقَرَاوَاتُ مِنْ قَرْيَتِنَا، وَ...»

فَانْبَعَثَ صَوْتُ ضَعِيفٍ، مِنْ آخِرِ الْقَاعَةِ، يَقُولُ: «عُدْرًا — يَا سَيِّدَتِي أُمُّ مَشْغُولٍ —

وَغَفِرِي لِي مُقَاطَعَتِي إِيَّاكَ!

لَقَدْ تَهَدَّمَ نَصْفُ بَيْتِنَا، وَيُحْيِلُ إِلَيَّ أَنَّنَا غَيْرَ آمِنِينَ عَلَى حَيَاتِنَا، وَحَيَاةِ ذَرَارِينَا. وَلَكِنْ نَشْعُرُ بِطُمَأْنِينَةٍ فِي هَذَا الْوَادِي، فَقَدْ أَلْفَتِ الشَّقَرَاوَاتُ أَنْ يُغْرْنَ عَلَيْهِ، وَيُفَاجِئُنَا بِأَحْدَاثِهِنَّ، بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ. أَلَا يَجْدُرُ بِنَا — إِذَنْ — أَنْ نَبْحَثَ عَنْ مَكَانٍ آخَرَ، نَتَّخِذُهُ مَقْرًا لَنَا فِي غَيْرِ هَذَا الْوَادِي؟»

فَصَاحَتِ النَّمَالُ — كُلُّهَا — قَائِلَةً: «لَقَدْ أَحْسَنْتِ وَأَصَبْتِ، وَبِفَضْلِ الْخِطَابِ نَطَقْتِ!»

(٢٦) فِي الْوَادِي الْجَدِيدِ

فَنَهَضَتْ «أُمُّ مَازِنِ» قَائِلَةً: «لَقَدْ اهْتَدَيْتُ — فِي هَذَا الصَّبَاحِ — إِلَى وَادٍ خَصِيبٍ، فِي مَوْجِعٍ بَدِيعٍ، لَا يَبْعُدُ عَنَّا كَثِيرًا، وَهُوَ فِي آخِرِ غَابَةِ صَغِيرَةٍ، وَأَرْضُهُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ طِينِيَّةٌ رَطْبَةٌ، فَهِيَ أَصْلَحُ الْمَوَادِّ لِبِنَاءِ جُدْرَانِ بَيْوتِنَا؛ لِأَنَّهَا قَوِيَّةٌ لَا تَهْدُهَا الرِّيَاحُ. وَنَحْنُ — الْآنَ — فِي فَصْلِ الْبُرْقُوقِ، وَلَدَيْنَا مُتَسَّعٌ مِنَ الْوَقْتِ، لِتَشْيِيدِ دُورِنَا، قَبْلَ حُلُولِ فَصْلِ الشُّتَاءِ.»

فَانْبَعَثَتْ أَصْوَاتُ عِدَّةٍ، قَائِلَةً: «لَقَدْ أَصَبْتَ فِي اقْتِرَاحِكَ، «يَا أُمُّ مَازِنِ»، وَنَحْنُ عَلَي رَأْيِكَ فِيمَا تَقَرَّرِينَ.»

ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ «أُمُّ مَشْغُولٍ»: «مَا دَامَ اقْتِرَاحُ أُمِّ مَازِنِ» قَدْ لَقِيَ مِنْكَ قَبُولًا حَسَنًا، فَإِنِّي أَنْصَحُكَ أَنْ تَضَعَنَّ شَيْئًا مِنَ الْوَقْتِ، فِيمَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ.

وَأَرَى أَنْ تَذْهَبَ طَائِفَةٌ مِنْكَ مَعَ «أُمِّ مَازِنِ» فِي صَبَاحِ الْعَدِ، عِنْدَمَا تَشْرِقُ الشَّمْسُ، وَتُبَلِّلُ الْمَرْوَجَ بِالْمَدَى، لِتَتَعَرَّفَنَّ مَوْجِعَ الْوَادِي الْجَدِيدِ.

وَلَا يَفُوتُكَ — أَيُّهَا الْعَزِيزَاتُ — أَنْ بِنَاءَ بَيْتِ النَّمْلِ لَيْسَ مِنَ الْهِنَاتِ الْهَيِّنَاتِ. فَهَلْ عَرَفْتَنَ مَاذَا يَجْدُرُ بِكَ أَنْ تَعْمَلَنَهُ، مُنْذُ الْآنَ؟

فَتَقَدَّمَتْ «أُمُّ نَوْبَةَ» إِلَى وَسَطِ الْقَاعَةِ، ثُمَّ قَالَتْ: «إِنِّي أَعْلَمُ ذَلِكَ حَقَّ الْعِلْمِ، فَإِنَّ أَوَّلَ وَاجِبٍ عَلَيْنَا، هُوَ أَنْ نَحْفَرَ فِي الْأَرْضِ حُفْرًا وَاسِعَةً، حَيْثُ نُنْشِئُ الْغُرْفَ، وَنَشِيدُ الْأَرْوَقَةَ.»

فَقَالَتْ «أُمُّ مَشْغُولٍ»: «صَدَقْتِ، يَا «أُمُّ نَوْبَةَ».

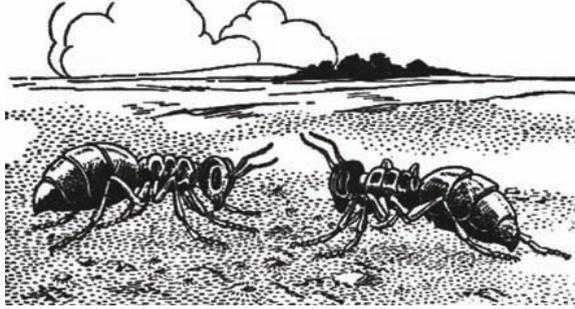
فَهَلْ وَعَيْتَنَ ذَلِكَ، أَيُّهَا الصَّغِيرَاتُ الْعَزِيزَاتُ؟

وَلَا يَفُوتُكَ أَنْ تُنْشِئَنَّ — فِي بَيْتِنَا الْجَدِيدِ — حُجْرَاتٍ لِتَرْبِيَةِ الْأَطْفَالِ، عَلَى غِرَارِ الْحُجْرَاتِ الَّتِي أَنْشَأْنَاهَا فِي بَيْتِنَا الْقَدِيمِ. وَلِيَكُنْ فِيهِ قَاعَةٌ كَبِيرَةٌ لِلِاجْتِمَاعِ.»

فَقَالَتْ «أُمُّ نَوْبَةَ»: «نَعَمْ يَجْدُرُ بِنَا أَنْ نَشِيدَ الْقَرْيَةَ الْجَدِيدَةَ، عَلَى نَسْقِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ الْقَدِيمَةِ، فَنَجْعَلَ فِيهَا تَعَارِيحَ تَعَوُّقٍ سَيْرِ الْمَطَرِ عَنْ دُخُولِ الْقَرْيَةِ وَنَشِيدَ طَابِقِينَ، وَاحِدًا فَوْقَ الْآخَرِ، حَتَّى نَأْمَنَ عَلَى مَا نَدَّخِرُهُ فِي قَرْيَتِنَا مِنَ الْبَلَلِ، وَنَشِيدَ فِيهَا مَنَازِلَ وَدِهَالِيَرَ وَحُجْرَاتٍ مُعَلَّقَةً، لِنَمْلَأَهَا حُبُوبًا وَذَخَائِرَ، لِفَصْلِ الشُّتَاءِ الْقَادِمِ.»

مُخَاطَرَاتُ أُمِّ مَازِنَ

فَقَالَتْ «أُمُّ مَشْغُولٍ»: «لَقَدْ وَهَبْنَا لِلَّهِ — سُبْحَانَهُ — آيَاتٍ تَمَيِّنُهُ، لِأَدَاءِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الْجَلِيلَةِ فَلْتَحْفِرْ كُلُّ وَاحِدَةٍ — مِنْكُنَّ — أَرْضَ الْقَرْيَةِ الْجَدِيدَةِ، بِقَوَائِمِهَا السَّتِّ، وَلَا تَضَعْنَ شَيْئًا مِنْ أَوْقَاتِكُنَّ عَبَثًا.»



فَصَاحَ شَبَابُ النَّمْلِ: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِكَ، يَا «أُمُّ مَشْغُولٍ»!»

(٢٧) خَاتِمَةُ الْقِصَّةِ



ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ «أُمُّ مَشْغُولٍ» قَائِلَةً: «لَقَدْ حَانَ وَقْتُ التَّفَرُّقِ، بَعْدَ أَنْ جَنَّ اللَّيْلُ، وَبَقِيَتْ لِي كَلِمَةٌ، أَفْضِي بِهَا إِلَيْكُنَّ، قَبْلَ أَنْ يَنْفُضَ هَذَا الْجَمَاعُ الْحَاشِدُ: لَقَدْ كَانَتْ فِكْرَةُ الْهَجْرَةِ، مِنْ اقْتِرَاحِ «أُمِّ مَازِنَ»: تِلْكَ النَّمْلَةُ الصَّغِيرَةَ، الَّتِي فَاقَتْ — عَلَى صِغَرِهَا — كُلَّ نِمَالِ الْقَرْيَةِ ذِكَاءً.»

وَعِنْدِي أَنَّهَا جَدِيرَةٌ أَنْ تُصْبِحَ مُهَنْدِسَةَ الْبَيْتِ، وَمُدِيرَةَ الْعَمَلِ فِي إِنْشَائِهِ، فَمَاذَا تَرَيْنَ فِي هَذَا، يَا بَنَاتِ الشَّيْصَبَانِ.»

مُخَاطَرَاتُ أُمِّ مَازِنٍ

فَصَاحَتِ النَّمَالُ كُلُّهَا، وَهِيَ نَاهِبَةٌ إِلَى غُرَفَاتِ النَّوْمِ: «أَصَبْتُ، يَا أُمَّ مَشْغُولٍ»،
وَوُفِّقَتْ إِلَى الصَّوَابِ، وَالْهُمَّتِ الرُّشْدَ وَالسَّدَادَ. فَلْتَحِي «أُمَّ مَازِنٍ»! فَلْتَحِي «أُمَّ مَازِنٍ»!.

إلمامة بالنمل

«قبسنا هذا المقال النفيس من دائرة المعارف الفرنسية، ليكون مرجعًا للمدرس في تدريس قصة «أم مازن».

خواص النمل

النمل حشرات صغيرة من الفصيلة المكنحة، وهو اجتماعي، شديد الألفة بطبعه، ومتى استثنينا منه أنواعًا قليلة شاذة، رأينا سواده يخضع لهذا القانون العام، وتنطبق عليه هذه الصفات.

وتألف كل جماعة من النمل عادة من أنواع ثلاثة: النمل العامل، والذكور، والإناث المكنحة. تتلخص صفاته وخواصه العامة فيما يلي: وجسم مستطيل يتفاوت طولًا وقصرًا، ولون غامق يتألف من أصفر وأحمر وأسمر وأسود، أو مزيج من هذه الألوان كلها أو بعضها بنسب متفاوتة.

أما رأس النمل فهو يختلف تبعًا لاختلاف أنواعه وفصائله، وهو قطعة مفصلية، ذات فتحتين، إحداها: فتحة صغيرة، عند نقطة اتصال الرأس بالظهر، وتسمى: الفتحة الخلفية. والثانية من الأمام، وهي فم النملة، وبها فكان قويان، يتألف منهما — على الأغلب الأعم — شكل مثلث. وكلاهما محدد تشبه حافته الداخلية حد المنشار.

ولهذين الفكين — عند النمل — شأن أي شأن، فهما عظيمتا الخطر، لأنهما سلاحه القوي، وعتاده الثمين الذي يستعين به على العمل، فهو يستخدمه كما نستخدم المنشار والمقص والكماشة، لنزع الأشياء وتمزيقها، وكما نستخدم اليدين في حمل الأثقال وما إلى ذلك. وليس من عمل الفكين مضغ الأغذية، فإن النمل لا يتغذى بغير المواد السائلة

مُخَاطَرَاتُ أُمَّ مَازِنِ

أو شبه السائلة، وليس في قدرته أن يزدرد طعامه — كما نفعل — ولهذا نرى أن هذين الفكين يؤديان أعمالاً أخرى — كما أسلفنا — غير المضغ.

أجسام النمل

وعيون النمل منحنية، وقلماً تكون مستديرة، أو منتظمة أي انتظام. وعيونه الملس على شكل مثلث عند الذكور والإناث. ويندر أن نراه عند العاملات التي لا تكاد ترى في رأسها — أحياناً — غير واحدة في منتصف جبهتها.

أما قرونه الناتئة، فهي متحركة إلى انحناء، تتركز على الحافة الداخلية لشرايين الجبهة.

ولا توجد الأجنحة إلا عند ذكور النمل وعذاراه. وبطنه منقسم إلى سبع حلقات للذكور، وست للإناث والعاملات. وتنتهي كل رجل من أرجل النمل بخمسة أجزاء، في آخر جزء منها إبرتان بسيطتان محددتان، يفصلهما شعر قصير كثيف. ويتميز النمل المجنح، الذكر عن الأنثى، ببطنه ذي السبعة مفاصل، ورأسه الصغير الكروي ذي العيون الملس. وللإناث أجنحة كذلك. ولكنها تزايلها بعد الإخصاب، سواء اجتثتها بنفسها، أو انتزعتها منها العاملات.

وتمتاز النمل العاملة بتجردها من الأجنحة، وتشرك الإناث في أن في طرف بطنها غدتين سميتين، تفرزان حمض النمليك. وبعضها مسلح بإبر ملس أو محددة، ينبعث منها السم في الجرح الذي تحدثه. وقلماً توجد هذه الإبرة عند جمهرة كبيرة من النمل الأخرى. فإذا وجدت فهي بسيطة تافهة لا خطر لها، وإن كانت تنفث السم إلى مسافة بعينها، متى لمست النملة عدوها بطرف بطنها.

طوائف النمل

وفي كل وإٍ من وديان النمل نرى العاملات أكثر ما في الوادي عدداً، بالقياس إلى الذكور والإناث التي لا تلتقي معاً إلا في فترات بعينها من السنة، مع استثناء الإناث المخصابات من هذه القاعدة. وثمة فرق كبير بين النمل في أجسامهن. فقد يدق بعضها، ويصغر جسمه، ويتناهى رأسه في الضلالة بالقياس إلى جسمه، بينما يكبر جسم بعض النمل الأخرى، ويضخم رأسه، ليتناسب مع حجم جسمه.

وفي وادي النمل تختلف أعمال العاملات وأعباؤها، فبيناظ ببعضها بناء الغرف والأحجار، ويناط بالبعض الآخر تربية الديدان الصغيرة، وما إلى ذلك من الأعمال. أما النمل الكبيرة الرأس، فإن لها قروناً قوية، ومن سوادها يتألف جيش النمل الذي يحمي الوادي من غارة المعتدين. وقد أطلق على هذه الفئة من النمل اسم: الجنود. وهي تقوم بحروب وانتصارات رائعة على أعدائها، وتأتي بالأسرى إلى واديتها فتستعبدتها، وترهقها بكل ما تحتاج إليه في واديتها من الأعمال. ويختلف النظام الغذائي للنمل، سواء في ذلك الأطفال الناشئون والشيوخ الفانون، اختلافاً عظيماً. ولا يشذ عن هذه القاعدة إلا أفراد غاية في الندرة، لا تبالي أن تأكل ما تلقاه في طريقها من الأعشاب والمواد الحيوانية.

ومهما يكن من أمر، فإن فم النملة — بطبيعة تكوينه — لا يسمح لها أن تتغذى بغير الأطعمة السائلة — أو نصف السائلة — التي تلعقها، أو تمر عليها لسانها حتى تلينها، وثمة لا تستطيع أن تأكل الأطعمة الجامدة. وقصارى ما تفعله بها أن تمزقها بفكيها، ثم تمتص ما تحتويه — في أثنائها — من عصير. أما أشهى غذاء تؤثره النمل، فهو أحشاء القنائص ذات العصير، واللحوم الطرية، ورحيق الأزهار، ولب الفواكه الناضجة المشققة، والمواد العسلية واللزجة، والأشربة، والسكر على اختلاف أنواعه، وما إلى ذلك من ألوان الأغذية.

مزايا النمل

ولقد لفتت مزايا النمل — منذ أقدم العصور — جميع الباحثين الذين عنوا بدراسة الحيوان والحشرات، واسترعت انتباههم، وآية ذلك ما ورد في الأقوال المأثورة عن الأنبياء والفلاسفة الأقدمين في العصور الغابرة السحيقة، فقد تجلى إعجابهم بمزايا النمل، وإكبارهم مواهبه وافتتانهم بمثابرتة وجلده، وقدرته على العمل، وذكائه، وما ألهمه من تعرف بعضه بعضاً، وتبصره وبراعته في دقائق الهندسة، واضطلاعه بجلائل الأعمال. وقد نوّه «شيشرون» — في العام السادس بعد المائة قبل الميلاد — بهذه الميزات الباهرة، وسار على منهاجه كثير من العلماء، وأقنعتهم بهذه الحقائق بحوثهم الصادقة الموثوق بها، وتجاربهم التي أجروها في القرون المتعاقبة، حتى أصبحنا اليوم نؤمن بصدق هذه المزايا إيماناً وثيقاً لا يتسرب إليه الشك، ونكبر ذكاء النملة وذاكرتها العجيبة.

مُخَاطَرَاتُ أُمَّ مَازِنِ

التي تهديها إلى تعرف بعضها بعضًا، وتبادل المراسلات فيما بينها، والتكاتف على أداء الواجبات والفروض المشتركة التي تضطلع بها جميعًا.

مساكن النمل

وتعيش أسراب النمل كلها — إذا استثنينا منها بعض شواذ نادرة — في مساكن مشتركة، يطلق عليها اسم: وادي النمل، وهي — على الأغلب الأعم — مؤلفة من طبقات عدة، ذات أروقة، وغرف للتهوية، وغرف للفقس وتربية البيض والعدارى، وفي بعض الأحيان ترى فيها مخازن للزاد.

وقد قرر أحد العلماء عام ١٨٨٥ في كتابه عن النمل، ما يلي:

إن فن النمل — في بناء مساكنها — يختلف باختلاف أجناسها، فإن لكل نوع بعينه طريقة بعينها، في بناء بيته وتنسيقه. وتستطيع العين المجردة دائمًا أن تميز النملة العاملة، التي تحفر الغرف والأروقة والمساكن. ومما يسترعي الانتباه: شخصية المهندس الذكي من النمل، وطرائقه في هندسة البيوت، وهي تخالف طرائق اليعاسيب والنحل في بناء خلاياها. فإن مهندسي النمل لا تعمل بالمثلث والبيكار، ولا تعنى بقياس الخطوط المستقيمة والزوايا. بل هي تعتمد إلى مسايرة ميلها وإلهامها، والاستسلام لغريزتها وابتكارها. وهي ترتجل — من فورها — نظام البيت الذي تسكنه، وتنشئه مبتدعًا على غير نهج مرسوم، أو خطة بعينها، أو هندسة مقررة. وثمة نرى غرفها وأروقتها ودهاليزها وسرايبها كثيرة التنوع، مختلفة الأوضاع، متباينة الأشكال. ولكن مجموع البناء، على اختلاف طرائقه وخططه، مطبوع على الدقة والتناسق. وهو ينم — في كل أوضاعه — على عبقرية مبتكريه، وحذقهم في الهندسة، وتفننهم في أساليبها.

وإن دهشتك لتشتد، ويتعاضمك العجب، حين تنعم النظر في أساليب العاملات الصغيرات في بناء البيوت، واستعدادها الداخلي، وتنوع الطرق والمعدات التي تلجأ إليها؛ إذ تحفر أروقتها تحت الأرض، وتوصلها بسطحها عند فتحة تعينها، أو عدة فتحات. وقد تنتهز فرصة سانحة لبناء وادياها تحت صخرة منبسطة تتحصن بها. وربما أنشأت على بيتها قبة أو تلة أو ربوة مكونة من مواد مختلفة، كالحشائش اليابسة وأعشاب النبات وسوقه، وما إلى ذلك.

ومن النمل ما يحفر الخشب، أو ينقشه، ويهيئ غرفه! بعد أن يصنع عجينة يستعملها في تنفيذ أغراضه، وربما عمدت النمل إلى اتخاذ بيوتها بين الأخاديد أو الأعشاب المرتفعة، أو في ثنايا أوراق الشجر الكثيفة الملتفة، أو ثقب الأشجار وفجواتها الطبيعية، وما إلى ذلك. وقد يصل ارتفاع التلال والكتبان التي تأوي إليها النمل، وتتخذ فيها بيوتها، إلى علو متر أو مترين، من القطر إلى القاعدة. وربما شيدت مرتفعات متماثلة — وإن لم تكن في مثل هذا العلو — على طول الطريق أو موازية لسياج طويل من الأعشاب. وقد تنشئ مساكنها في ثنايا الصخور المشقوقة وأسوار المنازل، وربما أنشأتها داخل البيوت، أو في ثقب الخشب، أو في جذوع الأشجار القديمة.

تلاقح النمل

وفي زمن بعينه من كل عام — يختلف تبعاً لاختلاف أنواع النمل — يخرج الذكور من واديهم جماهير وطوائف، وتخرج الإناث متهيئات للإخصاب في ذلك الوقت. فيطير الذكور في أثرها، ويلتقي الفريقان في الجو، ويتم هذا التلاقح — عادة — في وقت حار. ومتى كان الذكر أكبر من الأنثى بكثير، لجأ إلى الإخصاب في الهواء حيث تحمله الأنثى على ظهرها. فإذا تناسب جسمه وجسمها، فإنه يقبض عليها، وهي طائرة، ثم تتم عملية الإخصاب على الأرض. ولا تلبث عملية التلقيح — عادة — إلا بضع دقائق. ثم يأتي ذكر آخر فيلقح الأنثى نفسها مرة أخرى. ومهما يكن من أمر، فإن الذكور — بعد أن تتم تلقيح الإناث — تظل هائمة، تعتسف الطريق على غير هدى، وقد امتلأت نفسها يأساً، وأحست — في أعماق نفسها — أنها قد أصبحت متبطلّة، عديمة الجدوى. ثم لا تلبث أن يقتلها الغم والأسى، أو تلتهمها الطيور وسباع الحشرات!

أما الإناث فتتهوي إلى الأرض — بعد أن تتم عملية الإخصاب — وتقطع أجنحتها الضعيفة، ثم تذهب النمل العاملة بحثاً عن هذه الإناث، فتجمعها ذاهبة بها إلى واديها الذي خرجت منه.

وإذا رأينا في عالم النمل ملكة واحدة مخصبة، فإننا نرى — على العكس من ذلك — في وادي النمل كثيراً من الإناث المخصبات، في وقت واحد، ومكان واحد. وهي تعيش جميعاً على أتم وفاق وأسعد عيش، وتقوم العاملات بخدمتهن والعناية بأمرهن، من غير أن تميز واحدة منها على الأخرى. وتظل النملة — بعد عملية التلقيح — مخصبة طول حياتها، فلا تحتاج إلى تلقيح الذكور مرة أخرى. وتظل ثماني سنوات أو تسعاً وهي قادرة على البيض، دائبة على تنمية عدد المواليد في قرية النمل بلا انقطاع.

مُخَاطَرَاتُ أُمَّ مَازِنِ

أما بيض النمل فهو يماثل — عند وضعه — حبوبًا طويلة بيضًا، أو صفرًا، أو غامقة اللون، ومتى وضعته الإناث المخصبات جاءت العاملات فجمعته وربتته أكوامًا صغيرة. ولا تفتأ تلعبه، حتى يكبر حجم البيض — بفضل عنايتها — ويشف لونه، ثم يفسس، فتخرج من كل بيضة دودة. وهذه الديدان مختلفة الأشكال تبعًا لأنواعها. ولكنها — على تباين أجناسها — عمي بيض، في جسم كل منها اثنا عشر حُرًّا، تبدو للفاحص المتأمل، ورأسها أصغر من جسمها بكثير، وهو مائل إلى الأمام.

أما قسمها الأعلى، فهو ضيق مقوس ينتهي بطرف دقيق. وأما أسفل جسمها، فهو مستدير منتفخ قليلًا. وليس في استطاعة هذه الديدان أن تتغذى إلا إذا تعهدتها العاملات بالغذاء، ونفثت في أفواهها عصيرًا مغذيًا مما تدخره في بيوتها لهذه الذراري الناشئة. ولا تقتصر العاملات على هذا القدر من العناية، بل تزيد عليها، فتعنى بتنظيف هذه الديدان، ونقلها من مكان إلى آخر في أرجاء الوادي، في الأوقات المختلفة من النهار، لتقيها غوائل البرد والرطوبة، وتعرضها لأشعة الشمس الحارة التي تكسب أجسادها الحياة والقوة.

ومتى اجتازت الديدان دور النمو، استحالت إلى عذارى. ولن تتم هذا الدور قبل أن تنقضي عليها فترة تتفاوت بين شهر وتسعة أشهر. فإذا تم نموها ظهر جسمها عاريًا، أو ملفوفًا في قشرة حريرية. تحوي — في أثنائها — تلك الحشرات كاملة.

جماعات النمل

وجماعات النمل — في أغلب حالاتها — جماعات بسيطة مؤلفة من أفراد متماثلين. وربما رأيت أفرادًا من النمل متبطلين لا صناعة لهم، ولا عمل يشغلهم، وليس في قدرتهم أن يسهموا — مع أبناء جنسهم — في الاضطلاع بعبء من الأعباء، فهم لا يكلفون أنفسهم عناء البناء أو تعهد الديدان بالتربية. وقد يشهد بهم العجز والقصور، حتى يعجزوا عن تغذية أنفسهم. وثمة نشأت حاجتهم إلى مساعدات وخدمات يقمن بأداء الأعمال المنزلية في وادي النمل ومساكنه. وقد حفزتهم هذه الحاجة الشديدة الملحة إلى الإغارة، لجلب الأسرى واستعباد الأرقاء. وهي لا تألو — في سبيل ذلك — جهدًا، وتعنف وتشتد في تحقيق رغباتها. فتستولي على العذارى، وتغير على الديدان التي لم تخرج بعد من غلافها، فتنقلها إلى مساكنها. ولا يلبث النمل الصغير أن يخرج من قشوره، ثم يصبح طوع إرادة سادته المغيرين، ويلبي أوامرهم ورغباتهم بلا تردد، من غير أن يعرف أنه قد قسم له أن يكون فريسة اعتداء الجائرين، وجشع المستبدين.

وهذه الطائفة من الجماعات النملية الغربية، يروي لنا التاريخ عنها غرائب خطيرة، ويحدثنا عن عجائب البيوغرافية النملية التي تبده الباحثين الذين يطلقون عليها «جماعات النمل المختلطة». وإنما أسموها كذلك، لأنها مؤلفة من الرؤساء وأتباعهم من الأرقاء المستعبدين، حيث يعيشون في واديهم على أتم وفاق.

وترى في ذلك الوادي — عادة — نملة أو جمهرة من النمل المخصبات. وإلى جانبهن العاملات، فإذا حان فصل النتائج رأيت النمل المخصبة من الجنسين كليهما.

أما النمل التابعة المستعبدة، فليست على الحقيقة — إلا عاملات، لا هم لها إلا خدمة النوع، والتفاني في أداء ما تحتته المصلحة، وتوجيه نشاطها ومهارتها إلى خير هذه المستعمرة، وخدمة الجماعات النملية، دون أن يكون لها، في ذلك كله أي نفع ذاتي تصيبه من هذه الجماعة.

وللنمل صلات وثيقة ببعض الحشرات. سواء منها ما يعيش في واديه، وما يذهب النمل للبحث عنه في خارج الوادي، ولعل أحب تلك الحشرات الخارجية إلى نفسه، هي البراغيث، التي يمتص النمل من أجسادها سائلًا سكريًا، يرى فيه أشهى طعام يحبه ويؤثره على كل غذاء!

آراء بعض الباحثين

ويقول بعض الباحثين الثقات: إن النمل لا يخزن مؤونة له، وإنه يهلك في أوقات البرد القارس أو ينتفخ، ويقرر آخرون من الحكماء عكس هذا، وقد وصفوا هذه الحشرة — منذ أقدم العصور السحيقة — بأنها رمز التبصر، ومثال الادخار. وفي هذا الكلام تناقض في ظاهره، وإن كان من السهل على الباحث أن يوفق بين هذه النقائص، ويوائم بينها، لاختلاف أنواع النمل وأجناسه، فإن ما يصدق على فئة بعينها من النمل، لا يصدق على غيرها من الأنواع. فليس من سبيل إلى الشك في أن نمل المناطق القطبية والمناطق المعتدلة، تخالف نمل المناطق الحارة أشد الاختلاف.

وإن الباحث المتأمل في طبائع النمل ليجد — على الحقيقة — أنواعًا منه تسمى: «النمل الحاصدة». وهي قادرة على تحمل البرد القارس، والسعي إلى رزقها، وجلب مؤونتها في الشتاء، كما يرى ذلك في جنوب أوروبا. فإن هناك نوعين، يكسان في نهاية الوادي ما يدخرانه من الزاد، في غرف خاصة، تحوي من الحبوب والغلل والنباتات شيئًا كثيرًا. وربما وجد فيها كثير من جني الحقول والحدائق، لتكون زادًا للنمل عند الحاجة.

النمل والحرارة

وقد كتب أحد العلماء أن أول ما يمتاز به النمل — من الوجهة الجغرافية — اتساع مساكنه، وتعدد جماعاته، وتنوع فرقته. وأن النمل يكثر تبعاً لاشتداد الحرارة. فكلما دنوت من خط الاستواء، رأيت ازدياد أنواعه، حتى لتبلغ في المنطقة الحارة أقصى حد. ولا تكاد تصل إلى الدرجة الخامسة والستين من خطوط العرض، حتى تختفي أنواع النمل قاطبة.

وقد اهتدى الباحثون إلى نحو ألفي نوع من النمل منها زهاء مائة وعشرين تقريباً، وتعيش في أوروبا.

أما أقدم نوع عرف من النمل، فهو النملة الشقراء، وهي لا تكاد تعرف موطناً لها إلا في الغابات الكبيرة. وهذه النملة جريئة مشاكسة، ميالة بطبعها إلى الخصومة واللدد، مغرمة بالعداء والحرب. وهي تقذف بسمها إلى مسافة بعيدة، تبلغ ستين سنتيمتراً ارتفاعاً.

وثمة نوع آخر غريب منها، يستولي على وديان النمل، بعد أن يطرد ساكنيها. وهناك نمل أخرى تعيش في جوف الأرض، ولا يكاد يعرف عن طبائعها شيء.

وهناك نوع من النمل، يعيش في إفريقية الاستوائية الغربية (سيراليون والكاب وما يجاورهما من الأصقاع). وهي عمي تتحاشى ضوء النهار، وتكثر من الرحلات، ولا تتخذ لها مقاماً ثابتاً، وكلما نزلت مكاناً، أو حلت محلّة، حفرت لها موئلاً تحت الأرض بسرعة نادرة. وهي لا تمشي إلا في الأيام الغائمة، التي لا تطلع فيها شمس، أو في الأمسيات والليالي. وتؤلف، في أثناء سيرها، كتائب هائلة، ولا يصدها عن غايتها أي حائل، ولا تثنيها أي عقبة.

وهذه النمل هي مصدر من مصادر الرعب الذي يستولي على زنوج إفريقية من سكان تلك القرى. فإنها تضطربهم في أكثر الأحيان إلى مغادرة أكواخهم حين تغير عليهم. ولا يزالون يرقبون ابتعاد كتائبها بفارغ الصبر.

وهناك أنواع أخرى من النمل المنتشرة في جميع أنحاء العالم لا سيما في «فلوريدا» و«كلورادو» و«تكساس» و«المكسيك الجديدة» التي استرعت نظر «دارون» للمرة الأولى، في عام ١٨٦١، إذ نشر عنها أحد العلماء ملاحظاته العجيبة، ثم توالى الباحثون في درسها بعد ذلك.

وهذه الحشرات عجيبة حقاً، فهي تستطيع أن تزرع الأرض، وتبذر البذور وتحصد الزرع، وتزيل من حقلها كل نبات آخر، يعوق نمو تلك البذور.

نمال البرازيل

وهناك نمال مفترسة شتى، كثيرة الأنواع، تكثر في «البرازيل» و«جوانة» وجميع أرجاء «أمريكا الوسطى»، وهي رحالة، بأوسع ما تعنيه هذه الكلمة. فهي لا تقرر في مكان بعينه. وهي دائبة السفر من جهة إلى أخرى، فإذا مشت صارت صفوفًا متراسة. وربما أوفدت من كتائبها فرقة كشافة لتستطلع الأرجاء المجاورة، وتجوس خلالها وتفتش كل ثغرة فيها، وكل ورقة ساقطة، وكل عود من الحشائش. فإذا تم لها ما تريد، بدأت الغارة شاملة عامة، واقتحمت كتائب النمال كل ما يصادفها في طريقها، ومزقت ما يعترضها في سبيلها من الحشرات والعناكب والديدان، وربما فتكت أيضًا بصغار الثعابين.

فإذا اعترضها في طريقها منزل مأهول، اقتحمته كتيبة منها، فشردت سكانه كل مشرد، ولم يروا أمامهم إلا الفرار من هذا العدو الباطش المدمر.

ومهما تحدثه هذه النمال القوية المتوحشة من أضرار، فإن ما ينجم عن إغارتها من الفوائد، يُنسي السكان كل ما تكبده من خسائر وأضرار، فهي تفتك بالعقارب، والعناكب، والبعوض، والثعابين، والفأر، وما إلى ذلك من الحشرات الضارة، فتطهر المكان الذي تحل فيه تطهيرًا. ولهذا يزعمون أن الأهليين — في بعض هذه الأقاليم — يرقبون إغارة هذه النمال عليهم بفارغ الصبر. ويعدون مقدمها — على ما فيه من أضرار — نعمة وبركة، وخيرًا عميمًا.

نمل العسل

وهناك نوع من النمال يعرف في بلاد «المكسيك» باسم: نمل العسل، وهو يعيش في وديانه: جماعات مؤلفة من الذكور والإناث والعاملات والعاملين. وبعضه يشبه — في مظهره — النمل العادي، والبعض الآخر يخالفه، لانتفاخ بطنه انتفاخًا شديدًا، وإنما كان كذلك لإفراطه في الغذاء.

أما لون بطنه فهو شفاف عنبري، وهذا النوع بطيء الحركة، لا يكاد يتحرك من مكانه. فهو يظل جامدًا ملتصقًا ببعضه ببعض تحت الأرض. وفي بطون هذه النمال شراب سكري، غير مبلور، يماثل طعمه العطري طعم عسل النحل، ويقبل الهنود المكسيك على هذا الشراب السكري، في شراهة عجيبة، ويتحلبونه في أفواههم، كأشهى غذاء، ويمزجون به بعض أطعمتهم لتكون من أفخر أنواع الحلوى.

محفوظات

النَّمْلَةَ

لَوْحٌ مُخْتَارٌ مِنْ كِتَابِ «نَهْجِ الْبَلَاغَةِ»

انظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ — فِي صِغَرِ جُنَّتِهَا، وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لَا تَكَادُ تُنَالُ بِلِحْظِ الْبَصَرِ
— كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وَصَبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا: تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى مَسْكِنِهَا وَتُعِدُّهَا
فِي مُسْتَقَرِّهَا.

تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِجَرْدِهَا، مَكْفُولَةً بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةً بِوَفْقِهَا (طَاقَتِهَا
وَكَفَايَتِهَا).

وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا، فِي عُلوِّهَا وَسُفْلِهَا وَفِي الْجَوْفِ مِنْ شَرَّاسِيفِ
بَطْنِهَا (أَطْرَافِ الْأَضْلَاعِ الَّتِي تُشْرِفُ عَلَى الْبَطْنِ)، وَمَا فِي الرَّأْسِ: مِنْ عَيْنِهَا
وَأُذُنِهَا. لَقَضَيْتَ — مِنْ خَلْقِهَا — عَجَبًا، وَلَقَيْتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَبًا.